روايـــة

المتشـــــرّد



عبد الواحد استيتو

-1-

أتفرس في ملامح الزبائن جميعا. استفزّتني "المايونيز" التي تخرج من جانبيْ فم أحدهم كلما قضم قضمة. يأكل بشراهة ولا يرفع رأسه إطلاقا. لا أعرف لماذا بقيت أراقبه هو بالذات حتى رفع رأسه لثانية فالتقت عينانا فمددت له كفّـي مستعطفا. لم يجبني وأرسل ناظريْه بعيدا كأنني شفاف وغير مرئي. وغدٌ شرهٌ آخر. عليه اللعنة.

عدت من جديد لعملية المراقبة. محظوظ هذا المساء لأنني وحدي من يقف هنا، وبالتالي سأحظى غالبا بوجبة دسمة سيخلـّـفها أحدهم وراءه بمحل السندويشات هذا. شعرت بيد تربّت على كتفي فقفزت من مكاني ملسوعا، خاصة أنني كنت قد بدأت أشرُد. وجدتُ صاحب "المايونيز" يبتسم لي ويضع في يدي ساندويشا كاملا يبدو أنه اشتراه خصيصا لي. هو إذن ليس وغدا رغم أنه شرِه !

لا بأس. تعودت على هذه المفاجآت منذ مدّة، فالظاهر لا يكشف الباطن إطلاقا. لا شيء أكرهه مثل أصحاب العطور القوية النفاذة. أشعر أنهم يخفون بها رائحة قذارة أنفسهم وأرواحهم. وكم من مرّة تأكد لي هذا.

آه. نسيت أن أعرفكم بنفسي. أنا عماد. هذا كاف جدّا، لأنه في الحقيقة المعلومة الوحيدة التي أملكها عن نفسي. عمري حوالي 18 أو 19، ربما أقل أو أكثر. من أين لي أن أعرف؟ كلّ ما أعرفه عن نفسي وما أذكره أنني وجدت نفسي في شوارع طنجة وأنا ابن سنوات خمس.

متشرد ولا ماضي لي ولا مستقبل في الغالب. أفترش شوارع طنجة وألتحف سماءها. لحدّ الآن، هي أمي وأبي وإخوتي. فأنا على الأقل أعرف اسمها، وأحادثها من حين لآخر. غير هذا لا تسألوني عن أية معلومة أخرى رجاء كي لا تقاطعوني ودعوني أروي لكم يومياتي التي قد يراها بعضكم تافهة، وقد تثير البعض الآخر. لكنها تسليتي الوحيدة وسط عالم الزنقة المريع، والذي فكرت أنني لو جئت به إليكم فسيكون أفضل من أن تأتوا أنتم إليه.. وفي الغالب لن تفعلوا.

لديكم منازلكم، أسركم، غرفكم، أغطيتكم. فما الذي ستأتون لفعله لدينا؟

البارحة قررت أن أبيت في خربة "فيلا هاريس" المهجورة. يقولون أنها كانت من المآثر المهمّة جدا في طنجة، قبل أن يتم إهمالها وتركها حتى تنهار من تلقاء نفسها. هكذا أفضل، فهنا نستطيع أن نحظى بنوم هادئ في الغالب، إن لم يفاجئنا أحد رجال الشرطة.

وجدت هناك خمسة أصحاب أعرفهم. كان أربعة منهم يغطون في نوم عميق، بينما أحدهم يعبّ ثمالة كأس متسخ من الخمر الأحمر "الرّوج". حييته بيدي فردّ علي ثم تهاوى كقطعة حجر فوق كرتونة متآكلة وبدأ يشخر.

ابتعدت عنهم ببضعة أمتار تجنبا لأي احتكاك. المكان الذي اخترته سيّء جدا وكان عليّ أن أنظفه من بضعة أحجار تهاوت من السقف.

المكان مظلم لكن ضوء القمر سهّل المهمة. فجأة، لمستْ يداي شيئا غريبا. كان كتابا ضخما بأوراق مهترئة مكتوبا بخط اليد.

كتاب؟ هنا؟ شيء غريب. لكنه عموما يصلح كوسادة لرأسي. متى يأتي اليوم الذي أجد فيه بدل أشياء كهذه.. مئة درهم مثلا أو قطعة ذهب.. متى؟ !

ظل هذا السؤال يتردد في ذهني بينما سلطان النوم يعلن سطوته على المكان ونباح الكلاب المتشاجرة دوما يصلني من بعيد.

-2-

تبتسم شـُـرُوق، ذات الزبيبة الجميلة فوق الخدّ، دون أن ترفع رأسها وأنا أمرّ من أمامها ناظرا إليها بطرف خفي. لست متأكدا إن كانت تبتسم لشخصي أم لمروري أم للحدث ككلّ. ففي مقهى الإنترنت هذا الذي تعمل فيه شروق استطعت أن أعرف أشياء لم أكن أعلم بوجودها من قبل. دخلتُ يوما متسللا للتسلية فقط، لأكتشف عالما جديدا، بدأته بالدردشة واللعب ثم التصفح بفضول شديد.

لدى شروق، بدأت أتهجّى الحروف من جديد ومعها لوحة المفاتيح العربية، ثم الفرنسية. أرفع إصبعي باحثا عن حرف ما، فأقضي دقيقة كاملة لأجده، وهكذا.. قبل أن تصبح عملية كتابة جـُــمل كاملة مسألة سلسة بالنسبة لي.

في ملجأ الأيتام الذي قضيت به 3 سنوات من حياتي تعلمت الكتابة والقراءة، وكان هذا أفضل ما استطعت اكتسابه من هناك.. طبعا مع قلب مملوء بالغلّ والرغبة في الانتقام والتدمير. مدير الملجأ كان شيطانا مريدا لا يرحم. كان يتسلى بركلنا كلـّـما شعر بالملل. أقسى ضرباته كانت تلك التي يجمع فيها قبضته ويهوي على الرأس. أتذكرها الآن فأضع كفي على رأس وكأني قد ضـُــربت للتوّ. اللعين. الوغد. السافل.

في أحد الأيام زارتنا قناة تلفزيونية من أجل تصوير تقرير عن الملجأ. كانت أول مرّة أدرك فيها أن الشيطان يستطيع فعلا أن يتمثّـــل بالشكل الذي يريد. وهذه المرّة اختار أن يكون ملاكا، ولم ينقصه سوى تلك الدائرة على رأسه مع الجناحين.

أذكر أن المدير/الشيطان ربّت على رأسي حوالي مئة مرّة وهو يبتسم بعذوبة ويختلس النظر إلى الكاميرا. قبّلنا وضمنا إليه أكثر من مرّة. عندما مُدّ إليه الميكروفون ليتحدث خرج صوتٌ قادم من وراء السحاب، صوت ناعم رقيق مختلج.. بالكاد استطاع منع نفسه من البكاء من شدّة حبّه لنا ! كان جسده المنافق يتحدث. كفّه اليمنى على صدره.. حاجباه ترتفعان.. دموعٌ تترقرق في مقلتيه.

في المساء، بلغت بنا السعادة مداها لأنه قرّر السماح لنا بمشاهدة التلفزيون، وكأنه يريد أن نشاهد قدرته على التلوّن والتحوّل. لم نفهم أهو استعراض عضلات أم محاولة خداع.

لكن الفرحة لم تكتمل لأن القناة قرّرت أن تتآمر علينا هي أيضا وأن تزيد من شدّة المأساة وهولها، فعرضت لقطات للملجأ، وبضع لقطات لنا نحن الأطفال ونحن نلهو ونركل بعضنا، وتجاهلت تصريح المدير. بل إنها لم تظهر حتى لقطاته وهو "يحنو" علينا.

انتهى التقرير وعمّ الصمت. من حين لآخر نسمع صوت ريق يُبلع بصعوبة. وكأنه واحد من المشاهد السينمائية المكرّرة، استدار إلينا المدير – وأذكر الآن أننا كنا نناديه رشيد – وقد برز قرناه من جديد وسطعت أنيابه تحت أضواء المصباح الخافت:

- **ماذا تنتظرون يا ملاعين؟ ! القهوة والشاي؟ هيّا اصطفوا جميعا، فقد حان وقت عقوبة المساء.**

أما لماذا العقوبة؟ ولماذا في المساء؟ فهذه أشياء لم نكن نسأل عنها. فقط نصطف واحدا وراء الآخر بصمت وخشوع ونمرّ أمامه كي يمارس هوايته: الركل، اللكم، وأحيانا الرميّ أو الخبط بالجدران.

لازلت أتذكرك جيدا يا رشيد. ولي منك في هذه الحياة قصاص يوما ما. فقط انتظرني.

شروق تستمرّ في ممارسة لعبة التجاهل كعادتها، وتتركني أنهي الساعة وأخرج دون أن أدفع. على قدر علمي، أنا الاستثناء الوحيد هنا. أرى أن جميع الزبائن يدفعون إلاّيَ. لم نتبادل ولا كلمة واحدة أنا وشروق. حتى اسمها علمته فقط من بعض الزبائن أثناء مناداتهم عليها.

ما حدث في أول يوم أتيت فيه إلى هنا هو أنني عندما أردت أن أدفع تجاهلتني شروق تماما. شعرت ببعض الإهانة خاصة

أنني كنت قد أعددت العدّة ولبست ما أعتقد أنها ملابس لائقة، وخاصة أيضا أن مقهى الإنترنت كان يبدو لي وقتها كمقرّ وزارة لا يدخله إلا عيّنة مختارة من الناس. لكنني بعد مرور بضع دقائق فهمت أنها تتعمد عدم قبض الثمن. مغادرا ً، أقدم رجل وأؤخر أخرى، فهمت أن شروق تقول لي "لن أقبض منك..أخرج قبل أن أغير رأيي".

أسعدني ذلك ولو أنني لم أفهم سرّه. بذلك المبلغ اشتريت وجبة وقسمتها إلى غذاء وعشاء. الآن، كلما أقرر الذهاب إلى "شروق" - أقصد الذهاب إلى مقهى "طنجيس نت" الذي تعمل فيه شروق - ألبس أفضل ما لديّ. وأفضل ما لدي هي بذلة واحدة أخفيها في مكان مهجور بإحدى الحفر العميقة التي يستحيل أن يصل إليها إنس أو جانّ.

أنهيت اليوم جلستي الأسبوعية عند شروق، وها أنا أعيد ملابسي إلى صوانها الحجري.. إلى حفرتها. ذلك الكتاب الأصفر لازال هناك. حائرٌ أنا أأرميه أم أمزّقه أم أحتفظ به حتى حين.

يبدو مكتوبا بلغة غريبة.. ليست الفرنسية بالتأكيد لأنني كنت سأستطيع تمييز بضع كلمات رغم خطّ صاحبه الرديء جدا. أتراها الإنجليزية؟ !

الآن خطرت لي فكرة: لماذا لا أعرضه على شروق؟ تبدو ذات علم ومعرفة.. ولعلها تكون بداية معرفتي بها وبالسرّ الذي جعلها تعفيني من أداء الثمن وبتلك الطريقة الغريبة.

-3-

هذا الصباح مات "اللوكو". استيقظتُ على صوت ضجّة وصخب بعد ليلة زمهرير قاسية قلما تعرف طنجة مثلها. بتنا نحن الأربعة ونحن نكاد نحتضن بعد. حتى أنا تخلصت من عادتي بالانفراد واندسست بين ثلاثة إخوةِ شارع. تقاسمنا بطانية ممزقة، لكنها لم تكن كافية لتقينا قساوة الجوّ. "اللوكو" لم يحتمل ولفظ أنفاسه. رغم أنني رأيت مآسي كثيرة، لكنني لأول مرة أشهد حالة وفاة أمامي. ناديناه كثيرا معتقدين أنه أسرف في الشرب أو شم مادة "السلسيون" قبل أن يسمع ضجيجنا رجال شرطة كانوا بالجوار ويدخلوا ذلك الدرب الضيق الذي كنا نرقد فيه . فررنا للتو دون تفكير ووقفنا غير بعيد ننتظر ما هم فاعلون بـ"اللوكو".

من خلال إشاراتهم فهمنا أن حدثا جللا وقع، قبل أن يصرخ فينا أحدهم وهو يهمّ بمطاردتنا "قتلتوه آولاد الحرام". انطلقنا لا نلوي على شيء ونحن بين مصدق ومكذب. صاحب المبادرة كان هو "البيتشو" عندما ذهب مساء إلى المستشفى الإقليمي ليتأكد من الخبر الصّاعق.

أقبل علينا وهو منكس الرأس يهمهم بشيء ما. "اللّوكو قتله البرد.. البوبري (المسكين)" ! بكى البيتشو بحرقة شديدة. لم

أعتقد أنه قادر على الحزن، فبالأحرى ذرف دموع غزيرة مرفوقة بنحيب.

أنا لم أبك. بعض الأحزان تكون أحيانا أقوى من الدّمع. فقط صمتّ وبذلت جهدا كبيرا لابتلاع ريقي وأنا أنظر إلى الوجوه المذهولة الباكية.

"سنصلي عليه صلاة الجنازة" هكذا قال "البيتشو"، قائد المجموعة العفوي. كنا الآن أكثر من ثلاثين واحدا بعد أن أقبل كلّ من سمع الخبر من إخوة الشارع يسألوننا عن التفاصيل.

تعالت بعض الهمهمات المعترضة "لا أعرف كيف أصلي – لست متوضئا – لا أعرف صلاة الجنازة". قمع البيتشو بصوته المتهدّج كل هذه الاعتراضات بكلمة واحدة "الشمايت (الجبناء)".

انطلق فتبعه من تبعه وكنت من بينهم. لم نستطع تخمين وجهته. أخيرا وصل بنا إلى الشاطئ وطلب منا الانتظار قائلا "سأغتسل وأخرج لأصلي بكم.. استعدّوا".

- **ستغتسل في هذا البرد؟**
- **كله يهون من أجل عزيزنا اللوكو**
- **ستمرض.**
- **كأنني كنت معافى قبل هذا !**

وقفنا ننتظر وأغلبنا يرتعش من شدة البرد. عندما وصل الماء إلى مستوى صدر البيتشو غاص في الماء. وكانت تلك آخر مرّة نراه فيها !

استغرقنا الأمر وقتا طويلا قبل أن نفهم. لقد رحل البيتشو أيضا في واحدة من مآسي الشارع التي يصعب أن تتكرر. لا ندري إن كان غرق أم انتحر. لا أحد يعلم إلا البيتشو رحمه الله.

الجوّ البارد والسماء المكفهرة زادت من مأساوية المشهد، ونحن نقف قرب الشاطئ نحاول أن نقول أو نفعل شيئا. تمنيت أن أبكي هذه المرّة فخاب أملي. دموع القلب تنهمر بغزارة بينما العين جاحظة جافة كأنها أرض قاحلة.

هذه المرة جاء دوري لأصرخ "سأصلي بكم أنا.. اصطفوا ورائي". توضأت بسرعة من مياه البحر وكبّرتُ. أذكر بعض دروس أيام الملجأ، وكيفية صلاة الجنازة كانت من بينها.

في الليل اجتمع شمل جل متشردي طنجة في مشهد غير مسبوق. أشعلنا النار وسط برميل والتففنا حولها. البعض يبكي بصمت. آخرون يحاولون قتل الحزن قتلا بشمّ "السلسيون" وشرب "الروج". آخرون يلقون نكاتا سمجة ويستلقون على ظهورهم من شدّة الضحك. ضحك بنكهة بُــكاء.

قرّرت أن أبيت وحدي بعيدا عنهم لأن هذا ما أحتاجه. ارتكبت آثاما كثيرة لكنني بقيت بعيدا عن إدمان أي نوع من أنواع المخدرات طيلة فترة تشردي. ذقتُ من كلّ شيء لكنني لم أدمن شيئا.لا أدري إن كانت هذه ميزة أم نقيصة. فوعيي الحاضر دوما جعلني أتعبُ نفسيّا في أكثر من موقف.

صعدتُ فوق سقف ما كان يعتبر يوما مطبخا لـ"فيلا هاريس". وهو السقف الذي استنتجت أن الكتاب كان مدسوسا فيه وسقط بين الأحجار حيث وجدته. فما كان من المعقول أن يكون هناك لعشرات السنين دون أن ينتبه إليه أحد.

حاولت البارحة كثيرا أن أبيعه لأحدهم بثمن مناسب ففشلت. في سوق سيدي بوعبيد اقترح عليّ أحدهم عشرين درهما كثمن له، وقال لي أن هذا السعر ثروة مقارنة بقيمة كتاب لا يساوي شيئا كهذا، لكنني أصررت على مبلغ 50 درهم فرفض. هكذا أعدته لمكانه وقررت عدم محاولة بيعه ثانية، على الأقل لباعة السوق، بينما فكرة عرضه على شروق تلحّ عليّ أكثر فأكثر.

تمددت بلا مبالاة فوق السقف الذي يئن تحت ثقل جسدي وينذر بالسقوط في أية لحظة. كانت السحب الكثيفة قد قرّرت أن تنسحب تاركة لمصابيح الليل أن تزيّن السماء.

مرّ شهابٌ ثمّ آخر، ثم هدأ كل شيء. فكرتُ أن اللوكو والبيتشو يرسلان آخر تحيّة لهما من أجلي.

-4-

- ألا تملّ هذه الفتاة من العدو كلّ صباح؟
- مثلما لا نملّ نحن من شمّ السيليسيون.
- الناس فيما يعشقون مذاهب.
- أكره الفلسفة.
- لا عليك.. كانت مجرد جملة سمعتها فكـرّرتـها..
- يقولون أنـها ابنة أحد البرلمانيين
- سمعت هذا أيضا..

أترك حميدو مع شمّ السيلسيون وما يعتقد أنه فلسفة وأنـهض من مكاني متثاقلا غير راغب في فعل شيء وليس لديّ وجهة محددة. أمامي، قرب فندق الريف، تقف حافلة سيّاح. أخيرا، يبدو أن رزق الصباح قد أتى.

أحمل في يدي بضع إكسسوارت وتذكارات يفترض أنـها تمثل طنجة. طوال حياتي في هذه المدينة المجنونة لم أشاهد تذكارا واحد يعبر عن هذه المدينة حقًّا. إنـهم يبيعونـهم وهما، وأنا أول البائعين. لكن السياح لا يهتمون كثيرا لأهمية التذكار بقدر ما يهمهم أن يثبتوا أنـهم زاروا مكانا ما فعلا.. أو هكذا أظن.

فجأة خطرت لي فكرة عرض الكتاب على أحدهم أو إحداهن، خاصة أنني سمعتهم يتحدثون بما أعتقد أنه لغة إنجليزية.

أسرعت إلى الحفرة المعلومة التي لم تكن بعيدة لحسن الحظ وعدت بالكتاب.

كانوا منهمكين في عملية إنزال الأمتعة. لا يبدو أنه خيرُ وقتٍ لعرض الكتاب. أمرّ به عليهم وأنا أفرد صفحاته مُغريا وعيني على حارس الأمن الخاص الذي بدا منشغلا بعملية نقل الأمتعة ولم ينتبه لي لحسن الحظ.

- وات إيز ديس؟
- هه !
- سي كوا سا؟ (ما هذا؟)
- آن ليفغ.. أمبوغطون مسيو.. طغي أونسيان.. (كتاب.. سيدي.. مهمّ.. مهمّ جدا)
- نو إنغليش؟
- نو مسيو.. فغونسي فغونسي..
- أوكي أوكي... ليت مي سي.. فواغ.. فواغ.. جو فو فواغ.. (دعني أرى.. أريد أن أراه)

أمدّ له يدي بالكتاب بحذر. شابّ بشعر أشقر ناعم ينسدل على كتفيه، يقاتل كي يقول كلمة صحيحة بالفرنسية. يتصفح الكتاب بهدوء. تجحظ عيناه لهنيهة ثم يعود لهدوئه. أهذا اهتمام منه أم مجرد حركة عادية.

- كومبيان؟ (كم؟)

- 5 مليون سنتيم ماغوكان، با موان! (5 مليون سنتيم مغربية، لا أقلّ)

لا أعرف ما الذي جعلني فجأة أرفع الثمن إلى هذا الحد الذي لا أصدقه أنا نفسي، لكن لحظة الجحوظ تلك تركت في نفسي أثرا لم أستطع تجاهله. ثم ما الذي لديّ لأخسره؟ هذا الكتاب إما يساوي ثروة أو يساوي ما تساويه أوراق الكلينكس التي أبيعها من حين لآخر وقد يكون ربحها أفضل منه.

انفجر ضاحكا قبل أن تنتابه نوبة سعال حادّة، احمرّت لها عيناه، ثم قال :

- نون.. نون.. طوا فو؟ (لا..لا.. أنت مجنون؟)
- وي، جو سوي فو.. (نعم، أنا مجنون)

أعقد ساعديّ أمام صدري مصرّا متحدّيا. يواصل التصفح وكأنه يفكّر جادا في عرضي. هل غمزت الصنارة فعلا؟ هل يكون هذا الحدث نقطة تحوّل، وأستطيع أن أبدأ الحياة العادية التي حلمت بها دائما؟

- أوكي.. با دو بغوبليم (لا مشكلة).. مي جو فو ليغ (أريد أن أقرأه).. دومان لاغجون..
- لا لا.. لا يمكن أن تحتفظ به إلى الغد.. سلم واستلم.. أعطني المال الآن أو اتركني أذهب إلى حال سبيلي..
- أوكي.. تيان.. (حسنا.. خذ)

يسلـّـمني الكتاب ببساطة ويستدير مغادرا. اللعين. أجاد بشدة لعبة التجاهل في اللحظة الحاسمة. الآن، إما أن أعزم أو أحْجِـــم. ناديته فالتفت. سلمته الكتاب، وأنا أقول محذرا:

- **دومان.. لاغجون؟ ! (غدا، النقود؟)**
- **وي وي.. بيان سوغ (نعم.. أكيد)**

كنت قد وضعت في ذهني خطة سريعة وهي المبيت في نفس مكان أمس، مما يتيح لي أن ألمحه بمجرد خروجه في الصباح. لحدّ الآن لا أصدق أن الأمر قد حدث فعلا.. أو بالأحرى قد يحدث.

هل يمكن أن يسلمني المبلغ ؟ هل يثق بشخص تبدو عليه علامات التشرد؟ هل الكتاب مهم إلى درجة تجعله يتجاهل كل هذا ويدفع الثمن لي فعلا؟ أسئلة كثيرة جالت في ذهني وأنا أتوسّد كفي وعيني على حافلة السياح تلك، آملا أن يطلع عليه بسرعة ويوافيني بثروتي المرتقبة.

مرت الأربع والعشرين ساعة وكأنها 24 يوما. في الثامنة صباحا بدأ الوفد السياحي يصعد الحافلة مزمعا القيام بجولة على ما يبدو. أقترب وأنا أنتظر ظهور صديقي الأشقر. يصعد الجميع وتغلق الحفلة بابها وتبدأ في التحرك.

لا هذا غير معقول. هناك خطأ ما. أسرع وأقف معترضا طريق الحافلة فينهرني السائق آمرا بالابتعاد فأأبى. ينزل ناويا إبعادي فأمسك بياقته مستعدا لشجار لا تهمّني نتائجه .

ينزل بعض السياح ويسألونه عن المشكل فيجيبهم. يستمع منهم وهو لا زال ممسكا بعنقي أيضا ثم يستدير لي صائحا:

- **لقد سافر هذا الذي تسأل عنه أمس ليلا بشكل مفاجئ.. قال لهم أن طارئا حدث له وأنه لن يكمل رحلته السياحية..هيّا ارحل قبل أن أضعك تحت عجلات هذه الحافلة وأدهسك.. هيا أيها المتسول.. مْشي ن الـــ......**

هذه المرّة لم أرد عليه، وتركته يدفعني بعيدا بقوة جعلتني أترنح دون سقوط. ذاهلا تماما، أحاول أن أستوعب إن كان ما يحدث حقيقة أم كابوس. هل تعرضت للخداع والسرقة بهذه البساطة؟ أنا ابن الشارع الذي لا يشقّ له غبار؟ هل يفرّط ذاك الأشقر في رحلته لو لم يكن الكتاب شديد الأهمية والقيمة؟ يا إلهي.. أيّ غبيّ أنا... ما العمل الآن؟

-5-

هل أنسى موضوع الكتاب تماما؟ هل أستطيع أن أواصل حياتي وكأن شيئا لم يكن؟ أحاول أن أعصر ذاكرتي لعلي أستطيع أن أجد خيطا ما يمكنني من معرفة شيء يتعلق بذلك الأشقر، لكنني أفشل.

مصيبتي أنني حتى لو فعلت فلن أستطيع حيلة ولن أهتدي سبيلا. فلنفترض مثلا أنني علمت بسفره، بل وحتى بوجهته. ماذا عساي أفعل؟ وأنا الرجل الذي لا يجد أحيانا كثيرة قوت يومه؟ أأستطيع أن أوزّع جهدي بين بحث عن وجبة وبحثٍ عن كتاب لا أدري قيمته الحقيقة؟

لكن من قال إنني لا أدري قيمته؟ ألم يوافق الأشقر على دفع 5 ملايين سنتيم كاملة لشرائه؟ أكانت موافقة تلك أم مناورة؟ أسافر هو فجأة بسبب الكتاب أم أن أمرا طرأ فعلا جعله يغادر؟

سؤال يلي سؤالا. رأسي يكاد ينفجر وأنا أجلس فوق عشب الحديقة المواجه لمقهى الإنترنت "طنجيس". لا أعرف شخصا آخر غير شروق يمكن أن يكون مفيدا في هكذا موقف. فكرت أن أستشير "الدكتور"، وهو لقب أحد إخواني المشردين الذي يمتلك ثقافة عالية جدا من وجهة نظرنا. وكم من ليلة جلسنا حوله بعيون شغوفة وقلوب متعطشة وعقول متسائلة، وهو

يلقي علينا ما يشبه درسا علميا. يقول معلومات نسمعها لأول مرة عن كل شيء، عن الأرض والسماء والنجوم، عن التاريخ والإنسان والوطن... عن كل شيء. ثم، معلنا انتهاء الدرس، يقهقه فجأة بدون مقدمات ويمسك قنينة "الرّوج" خاصته وينهض مغادرا وهو يشرب ويسبّ أي شيء وكل شيء.

أخيرا قررت أن نهاية الحيرة لا تكون إلا بقرار يُنفّذ. فليكن متسرعا أو خاطئا، لكنه ينهي موضوع الاحتمالات والتساؤلات الكثيرة. فلتكن شروق هي المفتاح أو ليذهب الكتاب والأشقر وفيلا هاريس إلا الجحيم.

أنهض بحزم متوجها نحو مقهاها. أدخل وألقي السلام، فتجيب دون رفع الرأس كالمعتاد. أقترب من مكتبها الزجاجي وأقول بصوت خرج مبحوحا رغم كلّ شيء:

- أ..أ... أريد أن أستشير معك في موضوع.

ترفع عينيها اللتين أراهما عن قرب لأول مرة. خليط من اللون الأخضر والفيروزي. واسعتان، متسائلتان، ضاحكتان بشكل دائم على ما يبدو.

تسمرت للحظات وكأن عينيها عينيْ كوبرا أصابتاني بالشلل. لم يكن إعجابا بالضرورة، لكن نظرتها ببساطة لم تكن عادية. هكذا بقيت أحاول أن أتمتم بشيء ما، وأنا أبتلع ريقي كل خمس ثوان.

وكأن شروق تفهمت ارتباكي وفهمت أنني لن أقول جملة واحدة مفيدة وأنا في موقف الضعف هذا، فأسرعت قائلة:

- **ما رأيك أن نلتقي في المقهى المجاور في الثالثة عصرا؟ !**

لم أفهم بالضبط ماذا تقصد. إن كانت تقصد المعنى المباشر لهذه الجملة فهي مصيبة. أنا، ابن الشوارع، أجلس في مقهى؟ لا، ليس هذا فقط.. بل برفقة فتاة؟ !

نهضت من مكانها ملبية نداء أحد الزبائن وهي تكرر الجملة بحسم:

- **سأنهي عملي وأوافيك هناك.. لا تنس.. الثالثة بالضبط.**
- **نعم.. نعم..**

خرجت حائرا، ذاهلا، متسائلا: أحقا حدث ما حدث، وبهذه السرعة؟ يبدو أنني جنيت على نفسي حقا. كيف يجلس الناس في المقاهي؟ ماذا يفعلون بالضبط وكيف يتصرفون؟ أشاهد الآلاف منهم يوميا وأبيع لهم أيضا، لكن أن أكون أنا الجالس هناك، وفي ذاك المقهى الفاخر الذي ذكرت شروق؟ ياله من تحوّل كبير في حياتي يصيبني بالصداع.

مالي أنا وشروق والمقهى؟ مالي أنا والكتاب القديم؟ لا أريد شيئا. لا أريد تغييرا. أريد فقط أن أواصل حياتي التي ألفتها وألفتني. صحيح أنني حلمت كثيرا بحياة عادية أكثر من مرة، لكنني كنت أكذب على نفسي.. فحتى لو كنت حصلت على تلك الثروة من ذلك الكتاب كنت سأبقى في منزلي الكبير... الشارع.

هناك كنت سأصرفها حتى آخر درهم، أعيش يومي، أستمتع، أشرك إخوان الشارع معي في ثروتي. أطعمهم، أسقيهم. أحقق أمانيهم الصغيرة.

الساعة تشير إلى الثانية و55 دقيقة، وأنا مجددا فوق مقعد خشبي بذات الحديقة أنظر إلى ذلك المقهى وزبائنه وهم يجيئون ويروحون. ربطات العنق، الضحكات المفتعلة، روائح العطور... كل هذا سيصيبني في مقتل حقا.

أرى شروق، من موقعي المستتر، وهي تغادر المقهى وتتوجه بثقة إلى المقهى الفاخر. والله إنها جادّة. ماذا تقول عني لو أخلفت الموعد؟ أكره أن أبدو طفلا. أنا من قصدها، وعليّ أن أكمل هذه الخطوة حتى النهاية مهما كان.

آملا أن يكون لباسي - الذي أعتبره أنيقا – في عين أصحاب المقهى كذلك، وإلا فإنني سأكون في موقف لا أحسد عليه لو حاول النادل طردي. تحسست بحركة لا شعورية ذاك السكين

في جيبي الخلفي، وسرحت شعري بيدي في محاولة يائسة للتأنق ثم بسملت وحوقلت وتوجهت نحو المقهى.

هيّا يا شروق. إفعليها وقولي لي إنك تمزحين وأعيديني إلى عالمي سالما غانما رجاءً.

لكن شروق لا تمزح. شروق تبتسم لي وأنا أدخل وتلوّح لي كي أقترب وأجالسها. وا مصيبتاه.. وا مصيبتاه !!

-6-

- الأخ الأكبر يراقبك !!

تقول شروق هذا، دلالة على أنها كانت تراقبني، وتبتسم نصف ابتسامة تاركة لكأس الشاي فجوة في النصف الآخر. شروق تعلم كل شيء عنّي. أنا الذي اعتقدت أنني ناجحٌ في السرية التي أحيط بها نفسي. من خلف مكتبها الزجاجي، ومن خلال المرآة العاكسة الكبيرة الموضوعة كديكور أمامها على الجدار، كانت ترى كل شيء. تراني حافيا، لابسا أسمالا، قذرا أحيانا. تراني وأنا أغتسل بالنافورة قبل أن أعود لابسا ثيابي النقية.

إن كنت أذكر جيدا فأنا لم أقل سوى بضع جمل ألخص فيها كل شيء بينما شروق تتحدث وتتحدث بعفوية وبساطة تخلو من افتعال.

عندما أكثر يوماً "الرّيلانطي" من الحديث حاصرته في زاوية ثم أمسكت لسانه وأقسم إني كنت أنوي أن أقطعه له بملقاط في يدي لولا أن تدخل "البيتشو" رحمه الله وقتها وأنقذه. أكره الثرثارين.. أمقتهم. الصمت مقدّس. من ينتهكه فعليه أن يتحمل الوزر.

لكن كلام شروق ممتع وبه لذة عجيبة. كأنه إحدى الوصلات الإذاعية التي تحكي حكاية لا تُملّ.

تقول شروق:

- **بالنسبة لفيلا هاريس ، فحكايتها، باختصار مخلّ، هي أنها كانت في ملك صحافي بريطاني اسمه "والتر بورطون هاريس"، بناها في بدايات القرن العشرين، وظلت تحفة معمارية قبل أن يطالها الإهمال والنسيان. فهي لم تكن فيلا عادية، بل ضمت مسبحا رائعا ومسرحا مصغّرا جمع عددا من المبدعين الدوليين آنذاك، إضافة إلى أن حديقتها كانت تضم نباتات نادرة جدا أحضرها هاريس من أماكن مختلفة من العالم. ما زاد من غموض الفيلا وصاحبها أن والتر هاريس تعرض للاختطاف من طرف المقاوم الجبلي مولاي أحمد الريسوني الذي طالب من بفدية من أجل إطلاق هاريس، وهو ما حصل فعلا.**
- **كل هذا حصل ولم ينتبه أحدهم إلى الكتاب؟**
- **هه.. ليس تماما يا عماد.. هذا الكتاب في الغالب دُسّ بشكل سري في السقف الذي ذكرت لسبب ما، وفي أواخر أيام تواجد هاريس بالفيلا. وبقي هناك حتى اهترأ السقف وتهاوى، وكنت أنت أول محظوظ يجده.**
- **أي حظ هذا الذي تتحدثين عنه؟.. لقد سُرق منّي بأسهل طريقة على الإطلاق.**

- لا عليك. لو كنت بعته بثمن بخس دراهم معدودة، ما كنت لتعرف قيمته أبدا، وما كنا لنجلس أنا وأنت معا هنا.
- صحيح.. بالمناسبة كم عمرك؟
- 26 سنة، وأنت؟

أسعدني أنها أجابت بسرعة وعفوية. أكره التذاكي والمناورة. أكره الإطالة والإطناب. تمنيت حقا ومن أعماق قلبي ألا تسألني ذلك السؤال الأزلي "كم تتوقع؟"، ولحسن الحظ أنها لم تفعل.

- أنا بالكاد عرفتُ اسمي ولا أدري حتى كيف تم ذلك.. فما بالك بسني؟ أظنه 17 سنة أو 18..
- لا أعتقد.. لعلك في العشرين أو أكثر بسنة أو سنتين.. نُضجك ينبأ بذلك..
- لا يمكنك أن تتصوري كمّ النضج الذي يستطيع الشارع أن يمنحه لطفل في الخامسة، فما بالك بمن هو في 17 أو 18..
- صدقت.
- ما سبب اهتمامك بمشرّد مثلي؟

كنت أسأل أسئلة مباشرة وكأنها رصاصات تفلت من عقالها وغير قابلة للعودة. أسأل ولا أهتم للنتائج. شاهدت من النفاق ما يجعل المرء يتمنى أن يترجّل فعلا عن رحلته في هذا العالم،

لذا ومنذ سنوات قررت أن أي علاقة مع أي شخص ينبغي أن تكون علاقة "شارع". شعارها الصدق المطلق والوضوح السافر. ولنترك المناورات والخبث لمن يجيدون الإمساك بالميكروفون. نحن الحقيقة الفجّة. نحن الواقع بكل مرارته. نحن الذين دعكتنا الحياة. من حقنا أن نهب العالم ما يريده من صدق دون خوف. وأي شيء يخافه رجل وُلد خاسرا مثلي؟

حتى اللباس الأنيق الذي أحتفظ به، إنما لأقضي به بعض المآرب التي تنفعني مباشرة، كالدخول إلى مقهى شروق واستعمال الكمبيوتر، ولولا ذلك لمنحته لأي أخ من إخوان الشارع، فهو أحقّ به.

تجيبني شروق:

- لنقل أنني مولعة نوعا ما بمراقبة الناس عن بعد. مهنتي علمتني ذلك، جلوسي طوال الوقت خلف ذلك المكتب. تعاملي مع زبائن مختلفي الطباع. ما أشاهده على شاشات بعض الأشخاص من حين لآخر، وعن غير قصد، يجعلك تعرف أن الناس ليسوا ما يبدون عليه. الواحد منهم إذا ما انفرد بنفسه يصبح مُجرما من الدرجة الأولى. بالنسبة لك، فقد أثارني اهتمامك وفضولك للمعرفة الحقة. أن تترك الشارع وتتدبر ملابس خاصة بالمقهى فقط كي تشبع رغبتك في التعلم. أنت ببساطة شخص قد أتعلم منه الكثير.

- محاولة فاشلة للتواضع والتعاطف..

يمرّ النادل من أمامنا وألمح، بمزيج من الارتياب والوسواس، شبح ابتسامة ساخرة على شفتيه فأهمّ بقول شيء. تنتبه شروق فتسرع – بذكاء- مجيبة على كلامي:

- التواضع يكون بين شخص يملك الكثير وآخر لا يملك شيئا. لا شيء يدفعني لمجاملتك. أنا مهتمة فعلا بشخصك وبتفردك الغريب. بالنسبة للتعاطف، فصدقني إن قلت لك إنني أؤمن إنه لا يوجد من هو أفضل من الآخر. لا أحد في منأى عن عواصف الحياة. الآن في هذه اللحظة، يقع زلزال في مكان ما.. يتشرد مئات الأسر، ومن بينهم من كانوا يعتقدون أنهم أصحاب شأن. فقط هو قدر الله من يضع هذا هنا والآخر هناك. أي حادث بسيط قد يجعلني في مكانك وأنت في مكاني. لا فضل لي إطلاقا فيما أنا عليه، ولا ذنب لك فيما أنت عليه، إلا إن كانت يداك قد اقترفت إثما.
- كلام جميل جدا ومخيف..
- جميل وفهمناها.. فما بال الخوف؟
- مخيف لأنني أسمعه لأول مرة ولأنني أوشك على تصديقه..

تغرس شروق الشوكة في قطعة "الكروك" أمامها وتومئ لي برأسها كي أنهي قهوتي، في محاولة لتغيير دفة الحوار أفهمها دون كبير عناد..

- حاول مرة أخرى أن تعتصر ذاكرتك، لعلنا نمسك بطرف خيط يوصلنا إلى الأشقر..

انتابتني قشعريرة غريبة عندما استعملت الجمع في كلامها. لأول مرة في حياتي أشعر أن شخصا يشاركني مشكلة ما، شعورا ما.

أيّ إثارة هذه.. أي إحساس هذا !

فجأة، وكعنقاء تنهض من رمادها، تذكرت فعلا لحظة غابت عني تماما أثناء حديثي مع الأشقر..

- فعلا يا شروق.. والله هناك لحظة.. لقد كانت هناك عجوز تلتقط صورا لزوجها الذي كان يقف بمحاذاتنا لدرجة أن الفلاش أعمى عينيّ مرتين.. إن صدق ظني فأنا والأشقر سنكون قد بدوْنا واضحيْن في خلفية الصورة.
- الله عليك.. هذا هو الكلام.

-7-

على صخور الشارع التي نتوسّدها تنهار الأحلام ويتحوّل بعضها إلى كوابيس..

في الشارع أنصاف أحلام.. أرباع طموحات.. وأعشار رجال.

في الشارع تجد حالما كان يأمل أن يكون يوما دكتورا لكن الحياة أرغمته على أن يوقف العدّ عند العشرة، بدل مواصلته حتى المئة.

في الشارع تجد عـُـشر شاعر.. عـُـشر فيلسوف.. عـُـشر دكتور.. و عـُـشر عدّاء.

"السكورطيح"، مثلا، لو كان عاش حياة عادية لكان الآن ينافس الجمايكي "بولت" في حلبات السباق العالمية. لكنه وجد نفسه، رغما عن أنفه، عدّاء شارع.. مجرد مشروع رياضيّ لم يكتمل.

كان هو الأسرع بيننا، وكان يذهلنا بطريقة جريه كلما وقع حادث يتطلب العدو. ثمّ بدأنا نوظفه في الأمور التي يكون الفيْـصل فيها هو عامل السرعة. كلّ ميسّر لما خلق له.. و"السكورطيح" ميسّر كي نحتاجه كسهم منطلق كلما دعت الحاجة.

هذه المرّة جاء دوري واحتجت السكورطيح في المهمة التي اتفقنا عليها أنا وشروق، وهي إحضار صورة الأشقر بأية طريقة كانت. ولا توجد طريقة أخرى غير إحضار الكاميرا نفسها.

سألتني شروق:

- **تبدو مهمة مستحيلة.. كيف ستحصل على الكاميرا؟**

أجبتها منهيا باكرا جدا ما تصوّرت أنه سيكون جلسة نصيحة:

- **سأحضر الكاميرا.**

فهمت فصمتتْ ولسان حالها يقول: "افعل ما عليك فعله".

كنت قد بدأت أقلق بشدة عندما لم أجد "السكورطيح" في أماكنه المفضلة المعتادة. كان هذا قبل أن يخبرني أحدهم أنه "يقيم" الآن بأحد الأنابيب المائية الضخمة المخصصة لأحد المشاريع الكبرى بالمدينة.

- **السكورطيح...**
- **فاين آلخاوا..**
- **غير هنا والسلام... حْتاجتك ف شي حاجة..**
- **هانية.. شحال فيها؟**
- **2 طوبوس د السليسيون.. و 5 دراهم..**

"السكورطيح" لا يشتغل مجانا طبعا، ويؤمن أن لكلّ شيء ثمن. ولحسن حظي أن الثمن لم يكن غاليا جدّا. فقط علبتيْ "سلسيون" و5 دراهم كانت تفي بالغرض.

الحقيقة أنه قد يقوم بالمهمة من باب الشهامة. لكن الشهامة في هذا النوع من الخدمات لا تطول. فقط بعد يوم أو يومين سيقصدك طالبا شيئا مستحيلا أو أقرب إلى المستحيل. لهذا تعلمت في الشارع أن أؤدي مقابل كل خدمة أطلبها. هكذا يبقى صيتي في الشارع محترما.

هؤلاء الذين أينما توجههم لا يأتون بخير يعانون كثيرا في إمبراطورية الشارع، ويضطرون للقيام بدور صبيان المعلم. ولم أكن يوما منهم.

شرحت الخطوط العريضة للمهمة لـ"السكورطيح"، وتركت له التفاصيل. وقفتُ غير بعيد أراقبه وهو يقترب من العجوز صاحبة آلة التصوير وهي تهمّ بركوب الحافلة. آلة التصوير في يد، واليد الأخرى تلوّح له بها رافضة التصدّق عليه. يتظاهر بالانسحاب ويستدير نصف استدارة قبل أن يكمل دورة كاملة سريعة خاطفة حول جسد العجوز ويعود لالتقاط آلة التصوير من كفّها كأنه فهد صيّاد، ثمّ... هووووب.

بعد هذه اللحظة انسحبت ولم أتابع ما حدث. أعرف النتيجة جيدا. يستحيل أن يمسكه أحدهم. خاصة أنه اكتسب خبرة ليس

في العدو فقط، بل في رسم خريطة هروبه قبل القيام بأية مهمة.

أذهب لملاقاته في حي "عين اقطيوْط". يسلـّمني آلة التصوير وأسلمّه بضاعته المُجزاة. طبعا، فكر ألف مرة في أن يحتفظ بالغنيمة لنفسه وأن يبيعها.. وتبدو صفقة مربحة للحظة. لكنه يفهم الشارع مثلما أفهمه. سيخسر سمعته. وسيخسر يوم أضبطه، وهذا هو الأخطر، إمّا ملامح وجهه أو حتى حياته.

"الشّـــْـمْتة" هي أقبحُ ما قد يؤذي متشردا. تكفينا الفظاعات التي نعيشها يوميا، لذا لا داعي أن يحاول أحد يوما أن يضيف إليها جرعة خاصّة من عنده.. خاصة إن كان من إخواننا.

شعاري في الشارع هو "لا داعي لأن تكون قويا جدا. لكن اقتنص لحظة ضعف خصمك وسدد أقوى ضربة تستطيع". كنت أتجنب الشجارات على قدر الاستطاعة، لكن عندما كانت تفرض عليّ ولا أجد مفرا منها ألجأ إلى استخدام عقلي وليس عضلاتي. أصمت.. أتربّص.. أنتظر لحظة الضعف التي تكون لحظة سكر أو تعاطي لمخدّر ما، ثم أوجه أقسى ضربة لأسوأ مكان ممكن دون تحفظات.

شجار أول وثاني، ثم اكتسبت السمعة التي بحثت عنها، فأصبحت في منأى نسبيّ عن الشجارات اليومية.

أسلم على شروق وأضع آلة التصوير أمامها. تذهلُ عيناها متسائلة بما معناه "بهذه السرعة؟"، فأومئ برأسي مجيبا أنْ نعـــم.

نختار مكانا قصيّا ونبدأ البحث في ذاكرة الآلة فنعثر على 3 صور من التي نبحث عنها. الأولى لم تكن تصلح لأن الأشقر كان يطأطئ برأسه. الثانية يبدو فيها ثلاثة أرباع وجهه، لكنها لم تكن واضحة. الأخيرة – لحسن حظنا – كان وجه الأشقر فيها واضحا كأنه وقف خصيصا ليلتقط هذه الصورة من أجل جواز سفره.

أتساءل:

- مـــــا العمل الآن يا شروق؟ !

-8-

وكأنه شريط يُعاد إلى الوراء، وبنفس الطريقة السابقة، يعيد "السكورطيح" آلة التصوير إلى صاحبتها العجوز.

ينطلق عدوا.. يضع الآلة فوق حقيبة يدها برفق وكأنه كان في نزهة، ثم يعود إلى سرعته القصوى قبل أن يدرك أحد الموجودين ما حدث بالضبط.

كنت سأتكاسل عن مسألة ردّ الآلة لصاحبتها، خاصة أن مخزوني المالي على وشك النفاذ.. وبالكاد لديّ ما أستطيع به توفير 10 وجبات كحدّ أقصى. لكنني وجدت نفسي في الأخير أخضع لضميري الذي يبدو أنه لازال ينتفض من حين لآخر. هناك أيضا ذلك الخوف الخفيّ من أن تقول تلك العجوز "تبّا لك يا طنجة"... لا أحد يتمنى أن يسبّ أحدهم أمّه، وطنجة لحدّ الآن هي أمي الجيولوجية.. ولا أعرف أمّا أخرى في الحقيقة !

ثم إنني أعرف جيدا نتيجة إيذاء الآخرين، الضعفاء منهم خصوصا. وأنا أجلس في مدرسة الشارع كنت أرى – رأي العين – كيف تردّ الدنيا الصاع صاعين لطغاة الشارع وجبابرته.

الظالم، القويّ، المعتدي... يتحول بين ليلة وضحاها إلى أضحوكة.. إلى مهزلة.. إلى لا شيء.

أتذكر جيدا عندما جاء "الصـّحِيّحْ" في صباح أحد الأيام وهو يتمطى من شدة السعادة، مفتخرا بأنه دسّ مخدرا لـ"الروبيو" ثم اغتصبه !

و "الصّحيح" كان جبارا عتيّا، تجاوز العشرين بسنوات قليلة. بينما "الروبيو" كان مراهقا أشقر في الثانية عشرة من عمره بجسد ضئيل ويعاني من تأتأة في النطق. باختصار، نموذج للولد الضعيف الذي يستمتع الجميع بأذيته في أية مجموعة.

صمت بعضنا. احتجّ آخرون. بينما انطلق المتزلفون يباركون لـ"الصحيح" عمله "البطولي". أنا كنت من الصامتين، وكنت قد بدأت أفهم جيدا كيف تسير الأمور في الدنيا.. وفي دنيا الشارع خصوصا. لهذا جلست أنتظر خبرا ما.

بعد يومين وصلنا الخبر، وكان أفجع بكثير مما توقعت: لقد فصل "الروبيو" رأس "الصحيح" عن جسده. دعاه لجلسة خمر وكأن شيئا لم يكن. دسّ له مخدرا بدوره وتركه يغط في نوم لم يستيقظ منه أبدا. خسر كل ما يملك من أجل أن يكتري منشارا كهربائيا، ثم قام بعملية قطع الرأس وكأنه جزار خبير.

عندما جاءت الشرطة كان "الروبيو" يمد لهم يديه كي يأخذوه وهو يبتسم. لقد انتقم وهدأت نفسه. والويل لمن سيحاول بعد

الآن الاقتراب منه.. هاهو وحش آخر يولد من رحم شارع فجّ، فظّ، قاس كالحجر.

أنهيت مهمة ردّ آلة التصوير، وعدت لشروق لأرى جديد ما وصلت إليه.

- دعني أبشرك.. لم تكن المسألة بتلك الصعوبة في الحقيقة، كل ما فعلت أنني قمت بسحب الصورة ووضعتها في خانة محرك البحث غوغل، فكانت صفحة الفيسبوك الخاصة بالأشقر هي أول ما وجدت أمامي.. اسمه الشخصي "آلفي"، لكن اسمه العائلي لا نعلمه، فهو يسمي نفسه "آلفــي ذ بريتيش"، يعني آلفي البريطاني. يقيم في لندن. وباقي المعلومات ليس من حقي الاطلاع عليها إلا إذا كنت ضمن أصدقائه.. وهي مسألة تحتاج للتفكير ألف مرة قبل أن نقدم عليها..
- معلومات هامة جدا، لكن يبدو أنها لن توصلنا لشيء. لو كان الرجل قد وصل إلى لــندنه فعلا فقد انتهى الموضوع، وعلينا أن نجمع أدواتنا وننصرف...
- لماذا هذا التشاؤم السريع؟ حافظ على حماسك وعلى غيرتك على طنجة..
- سأحاول. لكن ليس غيرة على طنجة هذه المرة بقدر ما أريد أن أحصل على الكتاب.. أقصد على قيمته

المادية.. أحتاج تلك الملايين بشدة، وطبعا سيكون لك نصيب منها.

- **تعتقد أنني أساعدك لأنني أريد المال؟**
- **ماذا إذن؟**
- **ما لم أقله لك أن والدي – رحمه الله – كان يشتغل دليلا سياحيا، وقد قضى عمره في تعريف الناس بهذه المدينة كما رآها هو وكما عشقها. طنجة الراقية، الأنيقة، المتخمة بتاريخ يبدأ منذْ رست فيها سفينة نوح عليه السلام. كان يتعرض لنقد جارح من طرف زملائه الذين يرون في السياح مجرد كيس أموال، ومقابل ذلك كانوا يعرضون عليهم سلعا وآثارا بخسة، رديئة، لا تمثل طنجة في شيء.**
- **كلام مثالي جميل.. هل له علاقة ببحثنا عن الكتاب؟**
- **جدّا.. لكي أجيبك كان لا بد أن تعلم هذا. وأن تعلم أيضا أن والدي كان يوصيني بطنجة وكأنه يوصيني بواحد من أولاده، خصوصا أنني وحيدته. ترك أمانة في عنقي ورحل. قال لي " لقد منحتنا هذه المدينة كل شيء، ولم نمنحها شيئا. إن شعرت أنك تستطيعين أن تقدمي لها شيئا، أي شيء، فلتفعلي ولا تترددي."**
- **أنت الآن تريدين أن تردي هذا الكتاب للمدينة. فكيف ستفعلين ذلك؟**
- **أفكر في متحف القصبة، فهو الأنسب. لو استطعنا استعادته وسلمناه لهم فسيكون إضافة نوعية كبيرة**

جدا للمدينة وتاريخها.. كل هذا إن صدق أن الكتاب يحتوي على أمور مهمة، وأعتقد أنه كذلك مادام ذلك الأشقر قد ضحى بعطلته من أجله.

- وملاييني؟
- تفضل مصلحتك الشخصية والذاتية على مصلحة طنجة؟
- نعم..
- أعتقد أن الكلام انتهى بيننا إذن.
- بالضبط.. ذلك ما أعتقد... تهالاّ ف راسك (اعتني بنفسك).

أنسحب من أمامها، ومن أمام عينيها الحزينتين. حزن حقيقي لم أستطع أن أخادع نفسي وأدعي العكس أمامه. يبدو أنها كانت صادقة وجادة. لكن ما تقوله جنون كامل. يصلح أن يكون موضوع فيلم مثلا أو رواية، لكن ليس في هذا الواقع المرّ.

لا أدعي أنني أذوب عشقا في طنجة، لكنني لا أعرف غيرها أما وحاضنة ولا أريد أن أعرف. في أحد الأيام سمعنا أن هناك وليمة مجانية للفقراء بمدينة تطوان، فركبنا حافلة وعزمنا على السفر. ورغم أنني كنت قد دفعت كل ثروتي من أجل هذه الرحلة والتي لم تكن سوى 13 درهم، فإنني بمجرد وصولي لمنطقة "ساحة الثيران – بلاصاطورو"، بدأت أشعر بغثيان

غريب. طلبت من السائق التوقف، ونزلت دون أسترجع قيمة تذكرتي، ثم عدت مسرعا إلى شاطئ طنجة وأنا أبكي.

لم أفهم ما الذي حدث بالضبط، لكنني فهمت أنني لا أستطيع مغادرة رحِـــم هذه المدينة. وإن فعلت فسأمرض أو أموت في الغالب.

الآن، تضعني شروق أمام خيار صعب. هل أكون خائنا إن فكرت في نفسي أولا بدل طنجة؟ لا أعتقد ذلك. كان قراري هو أن أنسى كل ما يتعلق بشروق والكتاب وأواصل حياتي آملا أن أحظى بطريقة أخرى للحصول على ملاييني...

وهل هناك طريقة أفضل من ابنة البرلماني هذه، التي تمارس الجري كل صباح أمامي وكأنها فريسة تدعوني لخطفها وطلب فدية؟ !

-9-

صحيح أنني غير مؤذ. لكنني فقير ومحتاج بشدة إلى مال لا يكاد يحتاجه صاحبه. ذكرتني فكرتي بما قرأته يوما عن لصّ ظريف كان يسرق من الأغنياء ويعطي للفقراء، وما أنا عن ذلك ببعيد. أفكر فعلا في أموال أستطيع أن أسعد بها معي كل هؤلاء الأشقياء الذين يحيطون بي.

ابنة البرلماني ترفل في النعيم بالتأكيد. في فمها ملعقة من ألماس أو ذهب. تعتبر الحديث عن وجود طعام من عدمه مجرّد نكتة يلقيها أحدهم في مطعم فاخر وتضحك هي منها. راتب البرلماني الشهري الدسم يكفي بعض البسطاء كي يعيشوا به عاما كاملا وربما أكثر. هناك حقّ لي في ذلك المال وأنا سآخذه. هذا ما خلصت إليه واقتنعت به.. أو أقنعت به نفسي على مضض.

لا أنكر أنني أخشى أن يكون هذا ليس فعلا، بل مجرد ردّ فعل على ما حصل مع شروق. ذلك الحلم الجميل الذي انهار فجأة.. حلم الثراء، حلم القوّة، وحلم الثرثرة مع شروق!

أشعر بألم لا أستطيع أن أنكره لأنني سأفتقد طريقة كلام شروق، حبّها لطنجة، اهتمامها بي، والذي لم أحظ بمثله منذ أدركت وجودي في دنيانا .

هل كانت مبادرتي بالتعرف على شروق فعلا من أجل الكتاب أم لحاجة أخرى لا أستطيع أن أصارح حتى نفسي بها؟!

في الغالب، هما الاثنان معا، الكتاب لا أستطيع أن أنكر أهميته بالنسبة لي، وشروق هي من كانت تمثل كل جميل في عالمي البشع. فارق السن لم يكن يعنيني إطلاقا، بل لعله كان أحد أقوى الأسباب.. ففيها كنت ألمس حنان أمّ لم أرها يوما.. دراية وحنكة أب لم يحصل لي شرف معرفة اسمه حتى! اخترتُ للمهمة شخصين فقط ممن أثق بهما بشدّة: "الدندول" و منير. ومنير، إضافة إليّ أنا، هو الوحيد من إخوان الشارع الذي ينادى عليه باسمه الشخصي. الباقون كلهم ألقاب في ألقاب .

شرحت لهما فكرتي وتركت لهما يوما واحدا للتفكير. قبل أن يمرّ نصف يوم، مرّ عليّ "الدندول" وأنا في "مون" شاطئ طنجة أحاول أن أجمع بعض دُويْدات رمال الشاطئ لأبيعها كطعم للصيادين المتواجدين هناك.

-أمنضرا؟ كاين شي؟

-شاحتة هاد العشية أ خاي "الدندول.."

-وا المهمّ.. غير بغيت نقوللك هانا معاك..تينا آمر وأنا نغامر! تنفست الصعداء. "الدندول" مهم جدا في العملية كلها وأحتاج لقوته الجسدية في عملية الخطف. منير سأحتاجه في الحصول على سيارة .

كان يقسم لنا دائما بأغلظ الأيمان أنه يجيد السياقة لكننا كنا نغيظه ونسخر منه. في أحد الأيام قام بسرقة سيارة وجاء يستعرض عضلاته. لكن حظه السيء جعله يسرق سيارة مسؤول معروف المدينة. لذا لم تمض سوى ساعة واحدة حتى كان قد قبض عليه، وألقي في غيابات السجن.

لا أدري إن كان سيوافق على خوض هذه المغامرة بعد ما قاساه من تجربته الأولى، لكنني أرجح أنه سيفعل خاصة أنني قدمت للاثنين معا كل الإغراءات والضمانات: الربح المتوقع، نسبة الخطورة التي تصل إلى الصفر من وجهة نظري، الخطة المدروسة بعناية والتي على رأسها سرقة سيارة أراقبها منذ مدة، ويبدو أن صاحبها لا يملك حتى ثمن بنزينها لأنه يعرضها للبيع.

قبل أن أغمض عيني لأنام شاهدت شبح شخص يقترب، ولم يكن سوى منير.

-هه.. أمنضرا؟

-أنا معاكوم بلحاق بشرط..

-قل..

-ماخصنيشي غير الفلوس

-وشني خصّك؟

-العيْـــلة اللي غانخطفوها..

نظرت له شزرا وقد أدركت ما يقصد. لست ملاكا، لكنني لست شيطانا. ما أريد أن أقوم به استرداد حقّ. ما يريده منير ظلم وعدوان واعتداء صارخ .

-ألم تفكر أن أختك مثلا قد تكون في ذلك الموقف..؟

-ليس لي أخت ولا أخ ولا أحد.. يمشيو ن الـ..... ديمّاهوم كاملين..

عرفت أنني لو صعّدتُ الموقف فستنحو الأمور منحى خطيرا، وقد يشي بنا منير إن أحس أنه سيخسر كل شيء.

حاولت ألا أفقد تركيزي في غمرة غضبي. فكرتُ أن المناورة والمرونة هي الحلّ .

-حسنا، لكن لديّ شرط أنا أيضا.

-أهلا وسهلا...

-لن تلمس شعرة منها حتى يبقى يوم واحد على الموعد الذي سنحدده لتسليم الفدية.. اتفقنا؟

-هانية.. تكفيني ساعة واحدة.. هاهاهاها.

السبت صباحا. هاهي ابنة البرلماني تمارس عادتها وتمرّ أمام "فيلا هاريس "راكضة. في المنعطف الخالي، قرب مجموعة من الفيلات شبه المهجورة سننفذ الخطة. تنطلق سيارتنا - التي نجح في سرقتها منير - بسرعة خفيضة جدا. سيارة تشبه ثعبانا سامّا. هكذا بدت لي. تنعطف الفتاة فننعطف بسرعة. المكان خالٍ كأنه قبر. "الدندول" يستعد بالمنديل المشبع بالسائل المخدر في يده. بسرعة ينزل ويمسكها من الخلف ويضع المنديل على أنفها وهو يجرها معه نحو السيارة.

تقاوم وتقاوم. تركل، تعضّ، وتئن. تدريجيا تخفّ مقاومتها، فنحشرها بيننا أنا و"الدندول" في حين أطلب من منير الانطلاق الآن بأقصى سرعة.

لقد تمت المهمة بنجاح.

-10-

للتشرد ميزات كثيرة لا يعلمُها كثير من الناس، فالمتشرد كأنه طائر حرّ فعلا. إن قرر التحرك من مكان إلى مكان، فلا أحد سيسأل لماذا. إذا غاب تماما فلا أحد سيستفسر عن سبب غيابه. وإذا قرر – مثلما فعلنا – أن يقيم في مكان مهجور رفقة مجموعته، فلا أحد سيجرؤ على معرفة السر، أو حتى الاهتمام بذلك.

نحن أصحاب الأرض الحقيقيون. نحن الأحرار الذين نملك المكان بحق دون حاجة لسؤال أحد إن كان يسمح لنا أم لا. نحن من نمتلك مصائرنا ونقرر متى نقيم ومتى نرحل. نحن ملوك الشارع، لكن أكثر الناس لا يعلمون.

كنا قد اخترنا منزلا مهجورا يوجد بحيّ "البرانص"، الحقيقة أنه بقايا منزل فقط. سبق أن أقام فيه مجموعة من مدمني الهرويين، قبل أن يغادروه لسبب ما. منير كان هو من عثر على المكان، وعلى بضعة تفاصيل أخرى، فيها يكمن الشيطان. فغير بعيد عن ذلك المنزل يوجد أحد المشعوذين ممن يدعون معالجة الممسوسين والمرضى النفسيين، والمكان لا يكاد يصمت من صراخهم وأنّاتهم. لهذا، إن فكرت

رهينتنا – التي علمتُ أن اسمها مـنية - في الصراخ، ففي الغالب سيخال المستمع أن الصوت يأتي من بيت المعالج.

كانت هذه الفكرة من باب الاحتياط المبالغ فيه، لأنني في الحقيقة لم أعتقد للحظة أن رهينتنا يمكن أن تفكر في الصراخ، وهذه الوجوه المقنّـــعة التي توحي بالموت تحيط بها من كل جانب.

يقف "الدندول" على باب ذلك المنزل المهجور المهدّم كأنه خشبة مسندة. مهمته هي الحراسة، بينما مهمة منير هي البحث والتقصي، على قدر ما أطلب منه.

كنت قد قررت ألا أقوم بأي مبادرة أو حركة حتى يمرّ أسبوع تقريبا، ثم أترك رسالة لوالد منية، مطالبا بفدية قيمتها 20 مليون سنتيم. النصف لي والنصف الآخر يتقاسمه منير و"الدندول".

عندما يغيب "الدندول" لسبب من الأسباب أتكفل بالحراسة أنا، فمنير ليس موثوقا به بالنسبة لي إن انفرد بالرهينة. لقد كشف عن طويّـته بنفسه، وبالتالي ليس من مصلحتي أن أتركه مع فريسته الضعيفة.

تأكل منية الساندويتش الذي في يدها وهي تنظر إلى اللاّمكان، وأنا أجلس غير بعيد عنها أرشف من حين لآخر من قنينة ماء بيدي.

كانت قد رفضتْ الأكل في اليوم الأول بشكل قاطع، قبل أن أطمئنها تدريجيا مؤكدا لها أننا لن نؤذيها إلا إن حاولت الهرب. غير هذا، فنحن لا يهمنا منها سوى المال الذي سنحصل عليه من أبيها. هي مجرد وسيلة ستبقى في أمان إن أطاعت وانصاعت.

بتأثير الجوع، وبكلامي الذي حاولت ما أمكن أن أجعله هادئا مقنعا، بدأت تأكل وجباتها الثلاثة اليومية دون اعتراض، وإن كان الشحوب لم يفارق وجهها النحيل.

ملامح وجهها تذكرني بشيء ما، بذكرى مبهمة، لكنني لا أطيل التحديق كي لا ترتعب. أريدها أن تكون مرتاحة قدر الإمكان كي لا أدخل في أية مشاكل أخرى. مشكلتي الوحيدة الآن هي الحصول على المال، وأريد أن أبقيها كذلك حتى يتحقق لي ما أريد. وبعدها علينا وعليها السلام. فلتعد لحضن أبيها، وليأت المال لحضني أنا.

- **هل أحضرت الجريدة؟**
- **أووه.. لقد نسيت..**
- **فالحٌ فقط في الحضور إلى هنا كل دقيقة؟؟ نفذ بسرعة ما طلبته منك..**

يستجيب منير لما طلبت. أخرج أنا وأطلب من الدندول أن ينتبه جيدا للرهينة، ولأية حركة مشبوهة في الجوار.

أعود بعد حوالي ربع ساعة، لأسمع صراخا قادما من منزلنا المهجور. أهذا صراخ منية أم أنني أيضا التبس عليّ الأمر بينها وبين امرأة أخرى تـــُـصرع؟

أسرع الخطى محاولا ألا أثير انتباه أحد، ثم أدخل المنزل لأتفاجأ بالمشهد البشع. كان منير قد مزق نصف ملابس الفتاة، ويحاول أن يكمل مهمته بإصرار بينما مقاومتها قد بدأت تخف وهي توشك على فقدان الوعي من الإنهاك والرعب.

- منير.. توقف !!

يستدير إليّ بسرعة ويخرج سكينا حادة من جيبه.

- ابتعد إن كنت تريد النجاة بحياتك.. لا أريد أن أؤذيك.. أنا أريدها هي ، وأعدك أنني سأرحل بعدها نهائيا ولن أزعجك..
- هايدا؟؟ زعمتي؟ ! (هكذا؟ تجّرأت إذن؟)

بحركات سريعة من يده الحاملة للسكين يحاول منير أن يخيفني لأبتعد، لكن هيهات. تربصت به حتى توقف لثانية فأرسلت ركلة ساحقة ماحقة بين قدميه جعلته ينثني وهو يئن، قبل أن أكملها بضربة من ركبتي إلى وجهه بأقصى قوّة أمتلكها، سمعت معها صوت عظام أنفه أو فمه وهي تتهشم.

نزعت السكين من يده، وقمت بحركة لم أر منها بدّا. قطعت جزءا من أذنه اليسرى وتظاهرت بالتهامه، بينما رميته بعيدا.

- في المرة القادمة سأخرج أمعاءك.. هيا أخرج قبل أن أفعلها الآن !

ينظر إلى فمي الملوّث بالدماء وأنا أتظاهر بالمضغ وينطلق بعيون مرعوبة وهو لا يلوي على شيء. كنت أعرف أنني لو اكتفيت بضربه فقط فسيفكر بالانتقام. لو تجاوزت الحدود فسيفكر ألف مرة قبل أن يُقدم على ذلك. عليك أن تكون وحشا أحيانا لتستطيع العيش بين الوحوش. أو فلتنتظر الضربة الغادرة، اليوم أو غدا.

منية تنتحب في صمت وهي تنكمش على نفسها مرتعشة. آخذ البطانية التي تتغطى بها وألقيها عليها قائلا:

- سأحضر لك ما تلبسين.. لا عليك !

بيني وبين نفسي كنت قد قررت أن الموضوع انتهى هنا. سأطلق سراح البنت. لا أريد أن أتجاوز الحدود لأنني سأدفع الثمن.. ولا عذر لي آنذاك.

أسمع خطوات "الدندول" الثقيلة وهو يلج المكان.

- أين كنت؟

- لقد طلب مني أن أحضر الجريدة بدلا عنه لأنه مريض..
- فعلا، إنه مريض جدّا... !

حكيت لـ"الدندول" ما حدث، فبصق أكثر من عشر مرات على الأرض تعبيرا على احتجاجه. أنا أخذت الجريدة وانفردت بنفسي غير بعيد عن مخبئنا.

فتحتها باحثا عن خبر اختفاء منية، فوجدته فعلا في الصفحة الرئيسية:

"اختفاء ابنة البرلماني "عبد القادر الغياط" بشكل غامض".

أقف في مكان ذاهلا، مشدوها، مصدوما، وأنا أنظر إلى صورة والدها..

والله إنه هو.. من كان يصدق.. هو والدها فعلا.. يا إلهي.. يا إلهي !!!

-11-

كان المهرجان الخطابي لحزبه هو فرصتي لمعرفة الحقيقة كما هي. ذكروا في الجريدة أنه سيُنظم اليوم مساءً. انتابني شكّ إن كان "الغياط" سيشارك، لكنني وجدته أوّل من يعتلي المنصة وضربات قلبي تتسارع ويعلو صوتها حتى خفتُ أن يلتفت كل ذلك الحشد نحوي طالبا مني إن أسكت قرع طبولي.

إنه هو. قد تخدعني عيناي. قد يلتبس عليّ الاسم. لكن حدسي لمْ يَــكذبني مرّة. إنه هو ذلك السّادي، مدير ملجأ الأيتام. نفس النظرة العدوانية، الخبيثة، المتظاهرة بالحنان والرّقة. لقد أصبح برلمانيا، وهو بالتأكيد الآن يعذّب كل من صوّت عليه يوما. نحن كان يعذبنا بالركلات واللكمات وحرق الجلد. وهم يعذبهم باختلاس ما استطاع من أموال ومن إخلاف وعود.

كنت ألبس لباسي الاعتيادي، المتسخ نوعا ما والممزق، متظاهرا بالتسوّل. أعرف أن عيون الشرطة تملأ المكان الآن، وأي وجه غريب سيكون مستهدفا، لهذا كان أفضل حلّ هو أن أواصل التمسك بواحدة من ميزات التشرد، وهي الذوبان وسط البشر دون أن تلحظك العين.

كان يصيح مخاطبا الجموع بفصاحة تشعر أنه تدرب عليها أكثر من مرة فصارت عادة. حتى لحظات التوقف والتقاط

الأنفاس تشعر أنها مفتعلة بشدة وأن الغرض منها جسّ نبض الجموع وتفاعلها معه.

بعد دقائق من بدء خطابه، بدأ الحديث عمّا كنت أنتظره منه.. عن اختفاء ابنته. قال كلمتين أو ثلاثة ثم أجهش بالبكاء. بكاءٌ مرعب مخيف. بكاء بدموع التماسيح جعلني أفهم أن هذا الرجل – كما عهدته – لا يهمه اختفاء ابنته بقدر ما يهمّه أن يستثمر ذلك على قدر الإمكان في كسب الشعبية.

واصل كلامه وهو ينتحب ويتوعد. فهمتُ أنه يتهم حزبا آخر بعملية الخطف. وفهمت أيضا أنه يقدّم لي من حيث لا يدري هدية العمر. هذه نارٌ تحتاج فقط إلى من يُذكيها. ماذا عن صحافي متحمّس يكتب خبرا يزيد الشكوك في أن الخاطف هو عضو حزب منافس؟ !

أفكر في كل هذا وقد ابتعدت قليلا عن مقدمة الجمع، وجلست فوق ربوة مقابلة لمنصة المهرجان. الجمع ليس كثيرا. بالكاد يتجاوز المئة شخص.

عدتُ ليلا إلى المخبأ وأنا أفكر في طريقة للتأكد القاطع من أنه هو. لكن، كيف يتفق أن اسمه عبد القادر بينما كنا نناديه ب"رشيد" أيّام الملجأ؟ من يستطيع أن يكشف لي الحقيقة؟ من؟

أخيرا، وبعد مجهود كبير خطرت لي فكرة. فلبست قناعي ودخلت على "منية". وما إن رأيتها حتى انفجرت ضاحكا.. لا أدري بالضبط كي انفلتت الضحكة من عقالها بهذا الشكل.. لكنني وجدت نفسي أقهقه بأعلى صوتي وأنا أنظر إلى منية وهي تلبس بيجامة فضفاضة جدّا أحضرها لها "الدندول" بوصيّة مني.

حتى منية نفسها لمحت شبح ابتسامة على شفتيها قبل أن تعود لتختفي. يبدو أن عضلات "الدندول" أخذت فعلا كل ما يحتاجه عقله من طاقة حتى لم يعد يميز بين الأحجام ! لقد اشترى لها بيجامة فيل، وليس بيجامة إنسان.

المهمّ أنها كانت تفي بالغرض، وتوفر لها الدفء والستر.

- الهيّات... أجي نهنا..
- هانا أخاي "زرّوقة"..

كنا قد اتفقنا على استعمال أسماء مستعارة حتى لا ينفضح أمرنا فيما بعد لو قررت منية الوشاية. سألته :

- أولا، شكرا على البيجامة الرائعة..هه.. ثانيا، أين حقيبة منية الرياضية الجلدية التي أفرغتموها من كل محتوياتها؟

- أه.. لا شكر على واجب.. اعتمد عليّ دائما في مثل هذه الأمور.. أما الحقيبة فهاهي ذي في ذلك الركن خلف تلك الصخرة.

فتحت الحقيبة وأنا أدعو الله أن يصدق حدسي وأجد بُغيتي وقد كان. كانت بطاقتها التعريفية موجودة هناك هي وبضعة أوراق أخرى. أخذتها وخرجت باحثا عن إضافة أفضل.

"منية عبد القادر رشيد الغياط" !!

هكذا إذن. الرجل لديه اسم ثنائي. كان مشهورا لدينا باسم رشيد، والآن هو يستعمل الاسم الآخر، وقد يكون هو الاسم الذي ألفه به الآخرون دائما. إذن.. إنه هو.

دخلت وأعدت البطاقة لمكانها وأنا أشعر أن منية تنظر إلي بتوجّس وكأنها شعرت أن الأمور ليست على ما يرام.

- كيف تسير أمور الملجأ؟

وكأن السؤال المفاجئ أصابها بصعقة كهربائية، خاصة أمام الصمت الذي كان يلف المكان فانتفضت في مكانها.

- اهدئي.. لا تجزعي.. كان مجرد سؤال.. أكرر: كيف هو حال الملجأ؟
- لا رغبة لدي في الحديث..

جميل جدا. هاهي واحدة تريد أن تلعب دور البطولة في أسوأ وقت على الإطلاق. أنا بالكاد أتماسك وأمنع نفسي من أذيتها وهي تمثّل واحدة من لقطات مسلسل تركي ما.

أخرجت سكيني وأنا أستعدّ فعلا لإخافتها ولو بجرح صغير. لست مستعدا أبدا لهذا الدّلال المفاجئ. بل هي، في الحقيقة، فرصتي لإيذاء ذلك الحقير، وحرق كبده على ابنته.

بمجرد اقترابي منها صرخت:

- **لقد توقف الملجأ عن العمل منذ سنوات كما تعلم بالتأكيد.. لا أحد من أبناء الشارع تخفي عليه هذه الحقيقة !**
- **أنا لا أعلمها.. لماذا توقف؟ أريد التفاصيل..**

منذ أول سؤال لي عن الملجأ فهمت أن منية استطاعت أن تربط بين سؤالي وبين والدها. والدها مدير ملجأ سيء السمعة، وأنا متشرد. إذن بالتأكيد كنت واحدا من ضحاياه. لن يصعب عليها أن تصل لهذا الاستنتاج.

- **كما تعلم، من حين لآخر كانت تكتب عنه مقالات تنتقده لكنه استمر رغم كل شيء. في أحد الأيام قام أحد أبناء الملجأ بتصوير والدي وهو يمارس الـ...... أقصد يضرب الأطفال. ثم وضع الفيديو على يوتيوب، فانتشر الأمر ولم يعد هناك مناصّ من إغلاق الملجأ**

وطرد والدي، وهو الآن مكان مهجور، بدأ سوره وجدرانه تتهاوى فعلا.. لكن صدقني، والدي مظلوم فعلا، وقد تمت فبركة المقطع، ويكفي أن المحكمة حكمت ببراءته.

الغريب أنني فعلا لم أقترب من مكان الملجأ في حيّ مرشان منذ غادرته من سنوات. كأن المكان محاط بدائرة كهربائية عبارة عن ذكريات إن اقتربت منها ستصعقني.

تركتها وخرجت لالتقاط أنفاسي ولترتيب أفكاري. على بعد أمتار قليلة أرى شبح فتاة يتوجه نحونا أنا و"الدندول" فنتظاهر بشم "السلسيون" كما اتفقنا.. الفتاة تقترب بإصرار ودون خوف. تتضح تفاصيل جسدها شيئا فشيئا، ثم ملامح وجهها.

- شــــــــروق !!! ما الذي جاء بك إلى هنا؟ !

-12-

- لديّ خبران لك: خبر جيّد وآخر سيء. أما الجيد فأنني عثرت على عنوان "آلفي" سارق الكتاب.. أما السيء فهو أن الرجل يعرض الكتاب للبيع على موقع "إي- باي" للتجارة الإلكترونية، وهو ما يجعل احتمال ضياع الكتاب إلى الأبد أمرا غير مستبعد..

كنا نجلس أنا وشروق في نفس المقهى، بعد أن طلبت مني اللقاء. الحقيقة أنها لم تطلبه بل فرضته عليّ فرضاً. عندما زارتني في مخبئنا كانت كلماتها مقتضبة، واضحة، قاسية. وقالت جملة واحدة:

- غدا في نفس المقهى، في الخامسة مساء، أو أبلغ الشرطة الآن..

قالت هذا ثم انسحبت لا تلوي على شيء قبل أن أفيق أنا من هول الصدمة والمفاجأة. لم يبق أمامي مفرّ من تلبية رغبتها. وعندما التقينا شرحت لي كيف استطاعت أن تتوصل إلى مكان تواجدي.

- لقد شاهدتك مرارا قبل أيام مع ذلك المدعوّ سمير أو منير، وعندما مرّ أمام مقهاي بوجهه المغطى

بالضمادات فهمت أنك بالتأكيد من فعل به ذلك. هكذا، لم يكلفني الأمر سوى 200 درهم وكذبة بيضاء ادعيت فيها أنني رئيسة إحدى الجمعيات الخيرية وكلام كثير فارغ... طبعا هو لم يكن غبيا، وفهم من كلامي أنني لا أشكل خطرا، لكنه مع ذلك ألقى تهديدا أو اثنين محذّرا من مغبة قولي الحقيقة لك، وأنه قادر في أية لحظة على إيذائي. لكن كل ذلك لم يهمّني إطلاقا كل تلك التفاصيل (بما فيها اختطافك لابنة البرلماني)، فأنا يستحيل أن أكمل رحلة البحث عن الكتاب وحدي وأحتاجك فعلا بجانبي...

- أيا كان الأمر.. أعتقد أنني مجبر على تركك تواصلين البحث وحدك. كما ترين، أعيش الآن أحداثا مهولة اقتحمتها بنفسي اقتحاما ولا أنوي التراجع.. ولو أخبرتك بهوية البرلماني وما حدث لي معه يوما فستعذرينني..
- احكي لي إذن.. كلي آذان صاغية

هكذا انطلق لساني لأول مرة منذ عشر سنوات أو يزيد وألفيتني أروي تاريخي الأسود مع "رشيد" أو "رشيد عبد القادر الغياط". حكيت لها كيف دمر طفولتنا. كيف آذانا وأحرق جلودنا. كيف حولنا إلى رقيق في ملجأ. كيف أخرج إلى العالم مجموعة مجرمين مستعدين لارتكاب ما لا يخطر على البال من آثام.

حكيت وحكيت حتى شعرت بنوع من الراحة ودموعي، التي اعتقدت أنها جفت، تنهمر وتنهمر. لأول مرة لم أبال بأي شيء وتركت نفسي أفرغ ذلك الثقل الذي كان يجثم على صدري. ثقل ذكريات قاتلة مدمّرة.

تربّت شروق على كفي وعلى شفتيها ابتسامتها العذبة التي لا تكلف نفسها الكثير لترسمها على وجهها. لازالت فراستي تقول لي أنها صادقة تماما ولا تدّعي شيئا. فهل أتبعها أم أتجاهلها؟ فراستي أقصد وليس شروق طبعا.

- في القصاص حياة يا عماد. وأنا لا أنكر عليك الآن رغبتك في ردّ الصاع صاعين. لكن التهور مميت. وقد تمنح عبد القادر فرصة عمره لإيذائك من جديد. وعندها ستندم وقت لا ينفعك الندم. لو تمكنت الشرطة من الوصول إليك، فكن أكيدا أن عبد القادر لن يرحمك وسيستعمل ما استطاع من قوّة وسلطة لإيداعك السجن لأطول مدة ممكنة أوّلا، ولتحويل حياتك في السجن إلى جحيم ثانيا. لهذا، إن كان رأيي يعني لك شيئا، فاتـــّــبعني أهدك سبيل الرشاد.
- ماذا تقترحين؟
- أول شيء تفعله هو أن تطلق سراح منية. هذه خطوة لا مفر منها. لقد استفدت من عملية الخطف هذه عندما خدمتك الصدفة وعرفت مكان غريمك، وأظن هذه فدية مقبولة لحدّ الآن. لحد اللحظة، بإمكانك

التراجع.. لو تأخرت أكثر لا نعرف ماذا قد يحدث وأي تطور قد يطرأ على الأمور سواء من جهة الأمن أو حتى من جهة صديقيك سمير وذلك الضخم..

- منير و"الدندول"..
- لا يهمّ.. إن هي إلا أسماء سمّيتموها.. صدقني، لو استعدنا الكتاب، سيكون أمامنا وقت وفرصة لنعود لصاحبك ونأخذ منه حقنا.. أعدك بذلك..

مرة أخرى تستعمل شروق صيغة الجمع. ومرة أخرى تصيب وترا في قلبي. ذلك الشعور الغريب بأن شخصا ما يريد أن يفعل شيئا أو ينجز أمرا ويعتبرك جزءا منه. شعور عاديّ جدّا بالنسبة للكثيرين، لكن لنا أبناء الشوارع فهو أمر جللٌ وإحساس نادر جدّا.

- عماد.. أعرف أن الحياة دعكتك.. أعرف أنك لا تثق بأحد.. لكن، واعتبرها مسألة تفعلها مرة واحدة في حياتك، ثق بي وأسلمني نفسك، وكن عونا لي. ودعنا نستعيد هذا الكتاب من أجل طنجتنا..
- أحب طنجة.. ولك في قلبي مكان لا أنكره.. لكنني أحتاج المال ياشروق..
- جميل جدا أنك طرقت إلى موضوع المال. فأنا لديّ حلّ وسط بخصوصه..
- كيف ذلك؟ !

- **سنحاول ما أمكن أن نستعيد الكتاب أولا.. وبعدها نبيعه كما تريد، كي لا نخسر الثروة التي قد تأتي من ورائه، لكن نحتفظ بنسخة منه..**
- **تعرفين أن النسخة لا تساوي شيئا..**
- **سنحتفظ بها من أجل ترجمتها للغة العربية، وهو حقّ سنشترطه على من يشتري الكتاب. هو له الكتاب، ونحن لنا حق الترجمة والنشر عربيا !!**
- **أبذل مجهودا كبيرا لفهم ما تقولين بالضبط لكنني عموما فهمت الفكرة، سنضرب عصفورين بحجر: نبيع الكتاب، ونسوّق لطنجتنا وتاريخها من خلال ترجمته.. هكذا؟ صح؟**
- **تماما.. الله يرضي عليك..**
- **والله كلام نظري جميل.. لكن أمامنا عقبات كالجبال. فالكتاب وسارقه في لندن، بل إنه كما قلت قد بدأ عملية عرضه للبيع، وإمكانياتنا محدودة جدا. ثم بالنسبة للترجمة، من سيقوم بها وكيف؟ والله هذه الأمور هي التي أفر منها.. أشعر بارتباك شديد ودوخة..**
- **لهذا بالضبط قلت لك أسلمني نفسك..**
- **حتى لو فعلت.. فأي إضافة قد أقدم عندما أسلمك نفسي كما تقولين؟**
- **هل توافق على الزواج بي يا عماد؟ !**

-13-

أتجوّل بمنطقة "الفلوجة" بسوق كاساباراطا وأنا أفكر في كلام شروق. لقد كان اقتراحها مفاجئا وصاعقا حتى أنني ذهلت وبقيت صامتا لمدة تزيد عن خمس دقائق، ولم يعد يسمع سوى قرع الملعقة في كأسي الزجاجي إذ أحرّكها يمينا ويسارا.

احترمت هي صمتي تماما، قبل أن تقدمّ لي إضافات كان وقعها عليّ شبيها بوقع طلبها أو أكثر. قالت:

- اسمعني جيدا يا عماد. سأقول لك مجموعة حقائق لم تكن تعلمها عني. بعضها يتعلق بشخصي وبعضها بمشاعري ورؤيتي للحياة. أولا، أنا لا أعمل في ذلك المقهى كما لعلك تتخيّل. بل أمتلك ذلك المقهى لأنني ورثته عن والدي. لقد كان والدي حالة فريدة لأنه استطاع أن يجمع بين الشرف والكفاف.. ولنقل بعض الثراء أيضا. لم نعاني ضيق ذات اليد يوما. فقد حقق صفقات لا بأس بها عندما باع بعض التحف النادرة للسياح في فترة الثمانينات والتسعينات قبل أن تصبح طنجة أرضا بوراً. الخلاصة أنني الآن أمتلك ذلك المقهى الذي كتبه والدي باسمي، إضافة إلى منزل

آخر صغير، كنت أفكر ما الذي يمكن أن أفعل به.. أأبيعه أم أستثمره في الكراء. كما أن حسابي البنكي به بضعة ملايين محترمة. عندما شاهدتك أوّل مرة عرفت أنك شخص مختلف تماما عمّن أعرفه. صحيح أنك تعيش في الشارع، وسط الكثير من القذارات الظاهرية، لكن فراستي أخبرتني أنك نقيّ السريرة، وأنك – وهذا هو الأهم – صادق جدا.

- يذكرني هذا بفيلم هنديّ شاهدته قبل أيام..
- ما يحدث في الواقع يكون أكثر درامية من الأفلام.. صدقني. أعرف أن الناس أصبحوا في مجتمعنا عبارة عن نسخة واحدة مكرّرة. لكن هناك استثناء دائما.. صحيح؟ أنا هي ذلك الاستثناء. أنا لا أعبأ لحليقي الوجوه.. للمرائين.. للمنافقين.. لمفتعلي الطيبوبة.. للأثرياء.. لهؤلاء الفخورين بـ"الكريديت كارد" وبعطور "كوتشي".. أنا أبحث عن الصدق الفجّ.. عن الحقيقة حتى لو كانت مرّة. أنت لا تهتم لرضاي كثيرا. لا يهمك أن تجاملني. لا يهمك أن أراك منمّقا، أنيقا. أنت تعاملني بكل فطرة.. كأنك طفل ولد للتوّ يقوم بردود فعل مباشرة غريزية دون خوف أو وجل. صحيح أنك كنت تدخل عندي بلباس مختلف عن لباسك اليومي، لكن ذلك كان فقط لأسمح لك بالدخول ولا أطردك، وليس لأنك تتجمّل أو تتظاهر.

- وصفٌ غريب لأول مرة أسمعه عن نفسي، لكنه مثير..
- قد يفاجئك دائما ما لا تعلمه عن نفسك. لا تعتقد أن طلبي الزواج منك مسألة سهلة أو يسيرة. بل هي كانت أشق على نفسي من إخراج خنجر مسنّن من عضلة فخذ. لكنني، كما قلت لك، تعلمت منك – دون أن تدري – أن أقول كلماتي التي أريد وأرتاح. لقد جاءتني الفكرة ووجدتني أرتاح لها جدا، فلماذا التأخير؟ لماذا المناورة؟ لماذا الكذب على النفس وإطالة مدة التردد دون طائل؟ هو قرار اتخذتُه في انتظار قرارك أنت.

أستعمل الشطارة لبيع شاشة كمبيوتر لأحد باعة المتلاشيات بالسوق لكنه يصرّ على ثمنه البخس فأرحل. أفعل هذا وذهني شارد مع ما دار بين وبين شروق. أسئلة كثيرة أطرحها على نفسي وأجد لبعضها إجابات بينما لا أجد لما تبقى سوى الغموض. شروق خططت لكل شيء بإحكام شديد. سأشتغل معها بالمقهى لنصف يوم لفترة، قبل أن نقدم على خطوة الزواج. ستعلمني أساسيات العمل، والباقي – تقول هي – لن أجد صعوبة في التعامل معه، كالطباعة، والبحث، بل وحتى الرّقن على الحاسوب. بعد ذلك، سأتقدم لخطبتها من والدتها كأي رجل يحترم نفسها، وسنعيش معا في المنزل الصغير الذي تركه لها

والدها. ومعا سنواصل رحلة البحث عن الكتاب، والذي ستكون أولى خطواته السفر إلى لندن !

- وفارق السن لا يؤرقك؟

أسأل شروق فتجيب:

- بالله عليك.. امرأة تفكّر بطريقتي ستعبأ لهكذا تفاهات؟ مثل هذه العقبات هي أعذار يختلقها رجال ونساء لا يريدون بعضهم البعض. سببهم الوحيد أنهم غير متحابّين. لو كان هناك ميل للآخر وإعجاب به فيستحيل أن تلتفت للسن.. لاحظ أن الفرق ليس كبيرا، قد يكون 6 أو 5 سنوات.. هل نسمح لـ5 سنوات بحرماننا من حقنا في الحياة معا؟

يرهقني التفكير الكثير فأجلس بمقهى "الرّوبيو" الشعبي، وأطلب كأس شاي منعنع، وأغمض عيناي محاولا أن أهدأ قليلا. كمّ التوتر والانفعال في جسدي هائل جدا وغير مسبوق.

أحيانا أشك في نوايا شروق فأشعر بالذنب والسخرية من نفسي.

الذنب لأنني أشك في صدق شروق التي تتعامل معي بكل براءة وصدق، أو هكذا أعتقد.

والسخرية من نفسي لأنني بدأت أعتقد، ولو للحظة، أن هناك شيئا أمتلكه قد يدفع شروق للتقرب إليّ.

أتحسس الــ300 درهم في جيبي، والتي كانت حصيلة تعب يوم كامل تقريبا من بيع بعض الأثاث القديم. شروق منحتني حوالي 1500 درهم لأعطيها لـ"الدندول" كي يوافق على الانسحاب من العملية وإعادة الرهينة إلى أهلها. سأضيف لها المبلغ الذي معي آملا ألا يتعنت "الدندول" ويضعني في مشكلة جديدة.

لحسن الحظ مرّت الأمور بسلاسة لم أتوقعها. قبض "الدندول" المال وقبّل رأسي وانصرف. أنا لبست قناعي ودخلت على "منية" وسلمتها لباسا جديدا مناسبا وطلبت منها الهروب. كانت هذه فكرة شروق. وهي أن تكون آخر لحظات منية في المخبأ لحظات تترك انطباعا جيدا لديها كي لا تصرّ على البحث على مختطفيها وأخذ حقها منهم.

فكرت أن أقول لها شيئا أو أكتب تهديدا لوالدها لكنني أحجمت. هذا يعني أنني سأضيّق دائرة البحث عليهم وعلى الشرطة وسيعرفون أن الأمر يتعلق بالتأكيد بمتشرد ما كان في الملجأ، وسيصرفون النظر نهائيا عن مسألة "الحزب المنافس".

بل إنني إمعانا في التمويه طلبت من منية أن تقول لوالدها أن الأحزاب ليست كلها متشابهة وأن بعضها قد يكون مؤذيا

وخطيرا. كانت هناك ملاحظة بسيطة تمنيت فعلا أن تغفل عنها منية. وهي أنني ناديت منير باسمه عندما كان يهمّ باغتصابها، كما أنني نزعت قناعه أثناء الصراع الذي جرحت فيه أذنه. والحقيقة أن مسألة الاسم كانت تشغلني أكثر لأن الظلام كان يشكل غطاء لا بأس به بالنسبة لملامح منير، وخاصة أنها كانت مرعوبة ولم تكن في حالة تركيز على الوجوه.

تغادر منية وهي تتعثر في مشيتها وتحاول ألا تلتفت إلى الوراء كما طلبت منها. وحتى لو فعلت فلن تجد سوى الأفق الواسع أمامها، لأنني اختفيت مباشرة بعد أول خطوة لها بعيدا عن المخبأ.

- هل قمت بالمهمة؟ !
- على أتم وجه يا شروق، وبالمحاذير التي طلبتها..
- ممتاز.. بالمناسبة، نسيت أن أخبرك أن "آلفي" يضع صورا لبضع صفحات داخلية للكتاب، ومن خلال قراءتها وترجمتها وصلت لعدد من الحقائق..
- يا له من خبر رائع.. أتحفيني..
- أولا، الكتاب عبارة عن يوميات. ثانيا، كاتب اليوميات ليس هو صاحب الفيلا "والتر هاريس"، بل صديق له، وهو يصف من خلال الصفحات الموجودة أياما له

قضاها مع هاريس في الفيلا رفقة أصدقاء آخرين، واستمتعوا بذلك أيما استمتاع،

- أشعر أن هناك أمرا ثالثا..
- صحيح، الرّجل يحكي أشياء مثيرة عن الحرب العالمية الأولى، والتي كان "والتر هاريس" ممن كتبوا عنها وعاشوا مؤامراتها بعاصمة الدسائس آنذاك... طنجة !
- يا إلهي.. هذا يزيد من قيمة الكتاب..
- بالضبط.. ويزيد من ضرورة إسراعنا بالتحرك، وإلا فسنعضّ أنامل الغيظ إلى الأبد.

توقفنا عن الكلام أنا وشروق وتركنا للصمت مكانا. بينما كانت عشرات الأفكار تتزاحم في رأسي من جديد حول الأيام القادمة.. ما الذي ستحمله من جديد ومفاجآت ياترى؟ أتراني رأيت كل شيء أم هناك مزيد؟

-14-

أخيرا حصلتُ على بطاقة تعريف. اسمي الكامل الآن هو "عماد الطنجاوي".

لم يكن الأمر أبدا ببساطة كتابة هذا السطر. بل قضينا شهرين أنا وشروق بين كرّ وفرّ ورجاء وأموال تُصرف. تصرفها شروق طبعا وليس أنا. المحكمة.. الإدارات.. الوساطة.. الرشوة أحيانا.. فعلت شروق كل ما استطاعت دون أن تكلّ أو تملّ، لأمسك في الأخير هذه البطاقة بين يديّ. ولعلّ أروع ما فيها هو الاسم العائلي الذي اخترته لنفسي.. الطنجاوي. الحقيقة أنني ما كنت لأختار أو حتى يخطر ببالي لقب آخر. فأنا لم أتعلق في حياتي سوى بشخص وأرض.. ذاك الشخص هو أنا، وتلك الأرض هي طنجة.

أصابني الدوار والكلل أكثر من مرة وطلبت من شروق، راجيا، أن نتوقف وننهي كل شيء وتعود الأمور إلى نقطة الصفر كما كانت. كلمة "التغيير" في حد ذاتها ترهقني.. فما بالك بكل ما نفعله؟ !

لكن شروق تمتلك إرادة حديدية لا يفلّها شيء. دائما تقول لي أن ما مضى كان أصعب.. وأنا ما بقي أمامنا هو الأسهل والأقصر.. فهل ننقض غزلنا من بعد قوّة أنكاثا؟

تقنعني فأواصل مجاورتها والكفاح معها بما استطعت. أشعر بسعادتها لقربي منها، والسؤال لا يفارقني: "أحقًّا أستحقّ كل هذا، أم....؟".

البارحة ذهبنا أنا وشروق لنسحب جوازيْ سفرنا أيضا. أوصلتها إلى الفيلا الصغيرة التي تقيم فيها مع والدتها. قبل أن أودعها قالت لي:

- **الآن، جاء وقت الجدّ. عليك أن تستعد لتأتي لخطبتي غدا أو بعد غد. لقد أعددت كل شيء. والدتي لم تهتم كثيرا بالتفاصيل ما دمت أنا مقتنعة وأرى في ذلك سعادتي. أخبرتها أن والديك "ليسا هنا" وعائلتك أيضا. لم أكذب عليها عموما فعبارة "ليسا هنا" تحتمل معاني كثيرة. عائلتي صغيرة ولن نجد معها مشكلة. طبعا ستكون هناك بضعة أسئلة فضولية وبضع نظرات غير مريحة، لكن لا تلتفت لأي شيء من هذا. حياتنا وما ينتظرنا أهم من كل هذا العبث والسّخف. لا أعتقد أنني أحتاج لأن أوصيك.**
- **لا عليك. لقد اتفقنا منذ زمن وانتهى الموضوع. فقط لم أتوقع أن ذلك غدا أو بعد غد.**
- **محاولة جميلة للمناورة يا عماد. كأنني لو قلت لك الشهر القادم سيريحك ذلك. ما ستفعله في يوم ستفعله في شهر، وأنت تعلم هذا. ليس مطلوبا منك**

سوى بضع كلمات منمقة وواضحة. تريد خطبتي والزواج بي، وفي أقرب وقت.

أغادرها وألتحق بمنزلي الصغير، الذي سيصبح منزلنا معا. أعطتني شروق مفتاحه منذ مدة، كي تكون مسألة إقامتي هناك هي الفيصل بيني وبين حياة الشوارع. وقد كان ذلك فعلا.

أمرّ عند "الحاجّ عبد السلام" وأشتري منه قطعة من "الحرشة" مذهونة بزيت "أملو". أصعد غرفتي وأعد كأس شاي منعنع بالشيبة. أرشف أول رشفة فأستعيد نشاطي وتركيزي.

لا يوجد شيء يقضي على تعب اليوم مثل جلسة كهذه. أفتح التلفاز وأشاهده شاردا. لا أدري كثيرا مما يدور في العالم، وإن كنت قد بدأت أفهم بعضه وأحاول أن أربط بين هذا الحدث وذاك. وإن شغلني شيء ما أسأل شروق فأجد لديها الإجابة. وأحيانا أستعمل الإنترنت في البحث والتنقيب كعادتي.

حياتي تتغيّر. خلايا جسمي نفسها أشعر بها وكأنها تتحوّر وتتخذ أشكالا أخرى. النوم تحت سقف بالنسبة لي حدث جديد ومثير، فما بالك بفراش وثير وأغطية وتلفاز !

كل يوم نراقب أنا وشروق جديد المزاد العلني الذي أطلقه "آلفي" على موقع "إي- باي" كي نطمئن أن الأمور لازالت

على ما هي عليه. لحدّ الآن لازال الحظ يحالفنا. "آلفي" وضع قاعدة في إعلانه، وهي أن آخر مزايدة سيتم اعتمادها هي التي يمرّ عليها شهر دون أن يدخل مشتر آخر على الخط.

آخر مبلغ وصل إلى 200 ألف دولار بالتمام والكمال. بعد 15 يوما، لحسن حظنا، دخل شخص آخر وزايد بـ 220 ألف.. أمامنا شهرٌ آخر إذن.

أتأمل بطاقتي وجواز سفري فتدمع عيناي. أحقا هذا يحدث لي أم أنني أحلم. الغريب أنني أخشى أن أتعوّد على هذا النوع من الحياة المترفة. شعور غريب بالذنب لا يفارقني. كأنني أقترف إثما في حقّ إخوان الشارع. أنام دافئا، قرير العين، بينما هم يتجمدون من شدة الزمهرير أو تتألم جنوبهم من قساوة الأرض التي ينامون عليها.

أتساءل: كيف ستتدبر شروق أمر سفرنا إلى لندن؟ يبدو لي من خلال كلامها أن استعدت، وتستعد، لكل شيء بإلحاح وإصرار لا يلين. الكتاب سرق مني، لكنها أكثر رغبة في استرداده.

قلبي ينصاع لها بشكل كلي، وعقلي – ذلك العنيد – يوسوس لي أن شيئا ما ليس على ما يرام. حتى الأحلام لا تجدها بهذه الروعة. لا بد في الأخير من شخص يطاردك أو ينغص عليك

حلاوة الحلم. مع شروق لا يحدث هذا، وكل شيء يسير بسلاسة.

قالت لي شروق وأنا معها في سيارتها الصغيرة:

- ما شعورك أيها الطنجاوي وأنت تجلس قرب امرأة تقود بك السيارة؟
- لا أدري.. أنت لا تقودين السيارة فقط.. أنت تقودينني بالكامل الآن..
- وهذا أمر جيد أم سيء..
- من ناحية المبدأ هو سيّء.. لكن، معك أنت بالذات لا أشعر بأي خدش في رجولتي. ربما هي طريقتك البسيطة في التعامل مع كل الأمور فلا أدري أأتحرّج أم أنصاع لبساطتك.
- جميل جدا.. أنا لا أشك للحظة في رجولتك وشهامتك.
- وهذا ما يخيفني.. من أين تأتين بهذه الثقة؟ دعينا نكن صرحاء ولنعترف أنني مجرّد متشرد في الأخير.. يعني كل حماسك هذا لا بد له من سبب وجيه مهما حاولت أنا أو حتى أنت أن نتغاضى عنه ونتجاهله.
- أنت مصرّ إذن على معرفة الحقيقة التي كنت أريد أن أخبرك بها بعد الزواج وليس الآن..
- أكيد.. لا صبر لي على ذلك..

توقف شروق سيارتها قرب منزلي (منزلها)، وتطلب مني فتح الباب والدخول. أستجيب لها وأنا أحاول أن أفهم.

- والآن، أعدّ لنا كأس شاي منعنع من يديك الخشنتين واجلس لتسمع السرّ..

بسرعة، أعدّ الشاي وأنا أفكر فيما قد تقول شروق. المصيبة أنني لم أنتبه أننا الآن وحدنا إلاّ الآن. هذا ليس جيّدا إطلاقا. لا أحد منا يضمن نفسه. من أين تأتين بهذه الجرأة الممتزجة بالبساطة يا شروق؟

فليكن ما ستقوله شروق يستحقّ كل هذا، أو لأنسحب الآن قبل أن يحدث فعلا ما لا يحمد عقباه.

نجلس متقابلين وفي كفّي كل منا كأس شايه الساخن. تسألني شروق بهدوء:

- مستعدّ لسماع القصة..
- كـــلـــّـــي آذان صاغية...

-15-

تقول شروق وهي تدغدغ عنق تلك الهُريرة التي دخلت فجأة وتوسّدت حجرها:

-الحقيقة أننا كنا أجمل تعريف لكلمة "أسرة سعيدة". أنا وأمي وأبي.. لا شيء كان ينغص علينا أيامنا. أنا كنت أجد كل ما أحتاجه من حنان وحبّ لديهما. هما كان يريان فيّ كل ما حلما يوما بتحقيقه. وكما قلت لك، لم نكن أثرياء لكننا كنا نمتلك الكفاف.

أجمل لحظة في اليوم كانت هي تلك اللحظة التي يعود فيها أبي من العمل وفي جعبته 10 دراهم كاملة من زريعة نوار الشمس، التي يشتريها من أحد بائعي الفواكه الجافة الشهيرين بطنجة.

نجلس أنا وهو والوالدة ونبدأ في الثرثرة الممتعة. نتحدث في كل شيء وعن كل شيء. عنّا، عن الوطن، عن طنجة.. عن كل ما جدّ من أحداث عالمية. نصنع المقالب لبعضنا البعض، نتغامز، بل ونبكي أحيانا إن كان هناك حدث محزن.

الخلاصة أن تلك اللحظة كانت تمثل لي ذروة أحداث اليوم..

في ذلك اليوم المشهود تأخر أبي عن موعده، ولم تكن تلك أبدا عادته. لم يكن أبدا يتجاوز العاشرة، لكنه فعلها يومها. هاتفه مقفل. القلق يساورني وأنا أتظاهر أن كل شيء على ما يرام كي لا ينتقل قلقي إلى أمّي. تعرف ذلك الشعور المخيف عندما تقلق الأمّ. حدس الأم قلما يخطئ وهي إن وصلت إلى مرحلة التعبير عن قلقها، فاعلم أن مصيبة ما قادمة في الطريق إلا أن يلطف الله بك.

العاشرة والربع. لا اتصال ولا طرقات على الباب ولا أي شيء. قلقي يتزايد ووالدتي تتظاهر بإعداد ذلك المكان المفضل لجلوس والدي وكأنها لم تلحظ شيئا.

العاشرة والنصف. الصّمت هو سيد الموقف. والقلق على والدي يكاد يعصف بي.

الحادية عشرة. تلتقي عينيّ بعيني والدتي فأرى فيهما ما يخيفني. إنها قلقة.. بل مرعوبة، لكنها تخفي ذلك رحمة بي.

بعدها بدقائق نسمع طرقا خفيفا على الباب فنسرع معا ونحن نلهج بالدعاء بأن يكون القادم هو أبي وألا نسمع أو نرى خبرا سيئا.

أخـــــيرا. إنه هو. سليم ومعافى. بخير وعلى خير. لكن ملابسه ممزقة بعض الشيء ووجهه شاحب شحوبا شديدا. لقد حدث أم جلل بالتأكيد فما هو؟

هكذا، بعد أن التقط والدي أنفاسه، وأخذنا جلستنا المعتادة التي كان سيدها هذه المرّة هو القلق والخوف. بدأ والدي يسرد لنا ما حدث:

"...

كما تعلمون، دائما يوصلني صديقي عمر حتى باب البيت. اليوم كان مشغولا جدا لأنه يستعد لعرس ابنته فألححت عليه أن يتركني بعيدا قليلا وقررت اختصار الطريق بين الدروب لأصل بسرعة، وهو ما فعلته.

فجأة وجدت ثلاثة شبان مقنعين يحيطون بي ويطلبون مني أن أخرج ما بحوزتي. كان وقع المفاجأة صاعقا عليّ، فأنا كما تعلمان عشت مسالما وأريد أن أموت كذلك. لم أؤذ أحدا يوما وتمنيت ألا يؤذيني أحد. لكن أولئك الأوغاد كانوا محملين بأسلحة بيضاء وبقلوب سوداء لا تعرف الرحمة. قلت لهم أنني في سن آبائهم فسبوني وسبوا الدين وسبوا آباءهم أيضا.

هنا عرفت أن الأمر سيأخذ منحى مخيفا إن واصلت الكلام أو حتى الرجاء. فقلت لهم:

- حسنا أنا لا أملك شيئا ذا قيمة باستثناء هاتفي المحمول وبضع ورقات مالية.. هاهي خذوها ولا تؤذوني.
- وماذا لديك في تلك الحقيبة الرياضية؟

- شعاندكوم معاه.. !!! (ماذا تريدون منه؟)

بدا لي الصوت وكأنه قادم من مكان سحيق عميق، لكنني حمدت الله معتقدا أن أملي في النجاة بات أقرب. نظرت باحثا عن صاحب الصوت فإذا به مجرد متشرد يبدو أنه جاء يبحث عن نصيبه من الكعكة.

- ونتينا ش دخلك؟ (وأنت ما شأنك؟)

اقترب منهم دون أن يبدو عليه أي تردد أو خوف.

- خلليو الراجل يمشي فحالو وماتكونوشي شمايت.. ! (دعوا الرجل يرحل ولا تكونوا أنذالا)
- إذا لم تذهب سأمزق وجهك.

قال له أحدهم هذا وهو يهم فعلا بجرح وجهه، لكنه بقي مسمرا في مكانه كأنه قد من الصخر. لم يجرؤ المهاجم على لمسه وتوقفت يده في منتصف الطريق مهددة، مع تردد خفيف.

ظل ينظر إليهم بتحدي وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى. فهمت أنهم مترددين في مهاجمته لسبب ما.

- أنت هو الذي قطع أصابع قدم "الطولانطي"؟
- نعم، أنا هو. هل يريد أحدكم أن يفقد طرفا ما هو الآخر؟

فهمت أنه خائفون منه فعلا. لو هاجموه فسيسحقونه، لكنهم لم يفعلوا. والله بدا الأمر لي شبيها بما يحدث في الغابة عندما يتحدى الأسد أكثر من حيوان. أنت ترى أنهم قادرون على هزيمته، لكن شجاعته تهزم خوفهم فيتراجعون.

أخيرا قرروا الانسحاب ببطء وهم يتحسرون على الغنيمة. بينما هو اقترب مني وسألني:

- **هل كل شيء بخير أيها الوالد؟**
- **الحمد لله.. لم يؤذوني ولم يأخذوا شيئا.**

رافقني حتى باب البيت ثم قبّل رأسي وانصرف حتى قبل أن أوفيه حقه من الشكر. هذه كل الحكاية. وها أنا ولله الحمد أمامكم قد نجوت من أصعب موقف في حياتي.

"...

صمت والدي بعد أن أنهى حكايته والدموع في مقلتيه. دموع الأب تختلف عن أي دموع أخرى. هي لا تنزل إلا عندما يصل الشعور إلى درجة القهر. كان يبكي لأنه نجا.. كان يبكي لأنه شعر بالخوف.. كان يبكي لأن ذلك البطل أنقذه...

ذلك البطل الذي أخبرني والدي أنه سمعهم ينادونه بـــ"عماد"...

ذلك البطل الذي لم يكن سوى أنت.. !!!

-16-

غادرت شروق وبقيت أنا والهُريرة والصمت. أوصلتها حتى اطمأننتُ على انطلاقها بالسيارة ثم عدت. طنجة أصبحت مدينة متوحشة ولا آمن على من أحبّ فيها بدرجة كافية. والمصيبة أن يكون من أحبّ شخص واحد لا غير.. إضافة إلى طنجة نفسها طبعا. الحبّ ضعف. فجأة تكتشف أنك أصبحت مهتزّا، رعديدا، خائفا على فقدان من تحبّ. وقد كنت بالأمس – وأنت وحيد - أسدا هصورا لا تبالي بنوائب الحياة ولا تلتفت لأي شيء، ولو قال لكم أحدهم أن إعصارا سيضرب طنجة ويذرها قاعا صفصفا لفتحت ذراعيك له وانتظرت – بقلب ثابت – أن ينتهي كل شيء بسرعة.

من الشرفة الصغيرة أتأمل حيّ مرشان وظلام البحر الحالك الذي لا يكسر ظلمته سوى ضوء المنار القديم الذي كان في زمن ما يرشد السفن إلى برّ الأمان، ولازال مصرّا على أداء دوره بإصرار لا يلين.

أرشف من كأس الشاي الذي تركت شروق نصفه مملوءا. أرشف الشاي بفمي ورائحة عطرها بأنفي. فاجأتني شروق مرّتين. مرّة عندما أخبرتني بالحكاية إيّاها، ومرة عندما

أخبرتني بمحتوى تلك الحقيبة الرياضية التي كان يحملها والدها.

بصدق، أخبرت شروق أنني لست ذلك الشجاع الذي تعتقده وأن ركبتاي كانتا ترتعشان عندما هدّدني ذلك المجرم بسكينه، لكنني أبيت أن أتراجع. ولأن شروق لديها جواب لكل شيء فقد أخبرتني أن الشجاعة ليست هي عدم الخوف، بل التغلب عليه أو الإقدام على الشيء رغم الشعور به. منطقها يفحمني دائما فأأبى أن أكابر وأصمت معترفا أنها على حقّ.

شروق تعتبر نفسها مدينة لي بشدة من جهة، وتعتبرني الرجل الوحيد الحقيقي الذي عرفته في حياتها. هكذا قالت. حكت لي أنها تعرضت لموقف مشابه وسط الشارع العام عندما نهب أحدهم هاتفها وانطلق. قالت أن الشارع كان مملوءا بالعشرات من الذكور الأنيقين (تصرّ هي على تسميتهم بالذكور)، لكن أحدا منهم لم يحرك ساكنا وأفسحوا الطريق للّص رغم أنه لم يكن مسلحا. هؤلاء ليسوا أشرارا أو شياطين، بل كلّ كلامهم الذي قالوه بعد الواقعة فيه مروءة وشهامة. لكنه يبقى مجرد كلام. تلك الثرثرة التي نمارسها يوميا تحت مسمّى "الإتيكيت" كي لا نبصق على نفسنا لو واجهناها بحقيقتها المزعجة.

- عشت عشرات المواقف ورأيت المئات. الناس يسبحون في نفاق كبير، ولو قرأت أفكار البعض لأصبت بالغثيان. إنهم يتظاهرون، يمثلون،

يتقمصون. لكن، لا أحد منهم صادق إلا من رحم ربّي. وكان من حظي أن ألتقي واحدا منهم وأن تثبت لي المواقف، وليس الكلام الفارغ، أنه حقا رجل يفعل ما يؤمن به ولا يتراجع. ولا تدري كم بحثت عن رجل كهذا في أحلامي منذ وعيت على الدنيا. ما أفعله كما قلت لك، وكما أرى في عينيك، شيء يثير الحيرة والارتباك. لكن، مثلما علّمني والدي، فالأشياء الثمينة لها قيمة لأنها نادرة. وأنت نوع نادر من الرجال لا أريد أن أفقده مهما كان الثمن. الجميل فيما حدث معك أنني رأيت مواقفك وتصرفاتك قبل حتى أن نلتقي، وهذا ما جعل إمكانية الخداع أو التظاهر مستحيلة. سـلْ أي امرأة عاقلة ماذا تريد من الرجل، فستجيبك: الصّدق والشهامة.

ما كان مفاجئا حقا هو أن الحقيبة، حسب شروق، كانت تحتوي على مبلغ كبير جدا من المال. تقريبا 100 مليون سنتيم بالتمام والكمال. وكانت واحدة من أفضل الصفقات التي أنجزها والدها، حيث استطاع بيع أحد الأبواب القديمة لإسباني مهتمّ بالتحف. الباب كان يوجد بأحد الأحياء التي كان يقيم بها الإسبان بطنجة والمعروفة ب"الباطيو".

الباطيو تم هدمه في السنوات الأخيرة من طرف مستثمر عقاري لا يفهم لا في العير ولا في النقير. طردوا سكانه من

الطنجاويين الذين أقاموا فيه لعشرات السنين. لم يهتموا لهم ولم يهتموا لقيمته التاريخية. والد شروق، الذي تابع القضية منذ البداية، استطاع بما يشبه المعجزة أن ينقذ بابا واحدا قبل عملية الهدم، حيث ترجّى سائق آلة الطراكس الضخمة أن يسمح له بأخذه فوافق بعد تردّد. لم يبد أبدا أن أحدا يهتم إطلاقا بقيمة المكان. الباب كان يعود لنُزُل صغير كان بذات المكان، وكانت مطبوعة عليه لوحة نحاسية بها تاريخ صناعته وهو 1889.

احتفظ والدها بالباب لسنوات. خشي عليه من التلف فعرضه للبيع أخيرا، ولحسن حظه وجد مشتريا إسبانيا دفع فيه مبلغ المئة مليون سنتيم، والتي أصر والدها على قبضها نقدا لأنه وأصدقاءه سبق أن تعرضوا للنصب من طرف أجانب.

بتلك المئة مليون سنتيم اشترى والدها هذا المنزل الذي أوجد به الآن، والذي كان سيفقده لولا تدخّلي. وكأني بشروق قامت بعملية حسابية من نوع ما لتصل في الأخير إلى أنني أستحق أن أكون صاحب المنزل، أو نصفه على الأقل.

يا إلهي. كم هي غريبة هذه الأحداث. ماذا لو خرجت الآن لأرويها لإخوان الشارع؟ لن يصدقني أحد بالتأكيد رغم أنهم رأوا كل أهوال الدنيا. لكن أن تجتمع كل هذه المصادفات لتبتسم لي الحياة أخيرا فهو فعلا أمر محيّر وغريب.

جوّ شهر أبريل مخادع. البرودة تتسرب إلى أوصالي فأدخل إلى غرفتي مجددا وأجلس جوار حاسوبي المحمول الذي اشتريته بأول راتب قبضته من شروق. كانت تلك نصيحتها، وأنا كنت من الملبّين.

أراقب من جديد مزاد "آلفي" فأجد أن هناك شخصا جديدا زايد بـ 230 ألف دولار. هذا جيد، لكنني أتمزق من الداخل غضبا وحسرة، ثم أعود فأهدأ متسائلا عن أي مسار كانت ستتخذه الأحداث لو كنت بعته له بـتلك الملايين المعدودة التي طلبت. كنت سأصرفها حتى آخر سنتيم وأعود لحياة التشرد كأن شيئا لم يكن. لكن، هل الوضع الآن أفضل؟ والله لا أعلم. لكن تكفيني شروق لحدّ الآن كربح أنا مستعد لدفع نصف عمري من أجله فعلا.

الغريب أننا لحدّ الآن لم نتبادل أنا وشروق أي كلمة إعجاب أو حب، باستثناء ما تقوله هي عن شخصي من حين لآخر، والتي تعرف هي جيدا كيف تقوله بحيث لا أنجرف معها وراء مشاعري. تجيد بشدة لعبة التحفظ. كأنها تخشى عليّ من جرعة حبّ قوية قد تكون قاتلة، فتمنحني إياها قطرة قطرة.

عرض الزواج لا يمكن أن يكون من شخص قد أحبك. لكن شروق لا تقول هذا ولا تفصح عنه، وتأتيني بالسبب تلو الآخر في كل مرّة. هل يكون كلّ هذا في نظرها مجرّد ردّ دين لا أكثر. هل أرضى أنا بهذا؟ لحدّ الآن أنا نفسي عاجز عن تحديد

مشاعري بالضبط لكنني أقرّ أنني لو فقدت شروق الآن مثلا فسأجنّ.

حياتي كانت فارغة فجاءت هي وملأتها فجأة. والحقيقة التي أعترف بها أنني لست مستعدا لأعود فريدا وحيدا كما كنت. لديّ الآن شخص أعيش من أجله وأحميه. وهي مشاعر أختبرها لأول مرة ووقعها على نفسي لا يكاد يضاهى.

شروق تستعد لدفع طلب تأشيرة إنجلترا. لديها صديقة هناك، وقد أرسلت لنا دعوة باسمينا لحضور نشاط ما هناك له علاقة بالإعلام والإنترنت. شروق هي مديرة شركة "طنجيس" للمعلوميات والنشر، وأنا أحد موظفيها. هكذا جهزت كل شيء لنقوم بخطتنا.

سأسافر أولا، وستقيم هي حفل عرسها دون حضوري متحججة بأنني سافرت لأمر طارئ على أساس أنها ستلتحق بي لنقضي شهر العسل هناك. شهر العسل الذي لن يكون سوى رحلة مصيرية من أجل العودة بالكتاب أو نهلك دونه.

أتصفح أحد المواقع المحلية لأعرف جديد البرلماني عبد القادر رشيد وابنته، فأجد أن الموضوع بدأ يُنسى تدريجيا، ولو أن مسألة استثماره سياسيا لا زالت تطفو على السطح من حين لآخر حيث يتهم عبد القادر رشيد الحزب المنافس بالقيام بعملية الخطف ولو أنه يعلم في الغالب علم اليقين أن الأمر

ليس كذلك، لكنه لا يتردد في المتاجرة بمأساة ابنته. إنه وغد زنيم دنيء.. وسيبقى كذلك.

أحد الأخبار أدهشني، ويتعلق باستعادة لوحة كانت قد سرقت من المتحف الأمريكي تحمل اسم "زهرليزا" كانت قد سرقتها عصابة دولية على ما يبدو. الذي استعادها هو شابّ طنجاوي عادي يغار – مثلي وشروق – على هذه المدينة الأمّ.

حكاية سرقتها واستعادتها غريبة جدا ويندر أن تحدث في مدينة طنجة بتلك التفاصيل المثيرة. الشاب الذي استعادها اسمه خالد ويبدو أنه يقيم بحومة "اسبانيول"..

إلى أي مدى يمكن أن يكون مفيدا لنا هذا الشخص؟ سأسأل شروق وأرى ما الذي يمكن أن نفعله !

-17-

كان حفل الخطوبة بسيطا جدا. كان هناك بضع أشخاص من عائلة شروق، في حين كنت أنا وحيدا بدعوى أن أسرتي الصغيرة في لندن. والدة شروق تعلم الحقيقة كاملة، لكن العائلة لا داعي أن تعلم ولا ينبغي لها. قالت لي شروق أن الجحيم هو الآخرون، وكلما اقتربوا أكثر ازداد جحيمهم استعارا.

بضع نساء متشككات ينظرن لي ويتساءلن بينهن – بالتأكيد - عن حقيقة هذا المخلوق العجيب الذي اخترق العائلة فجأة وخطف منهن "صفقة" شروق. واضح جدا أن بعضهن كن يتمنين أن يحظى بها أحد أبنائهن. "دجاجة بكمونها" كما نسميها. لكنني أفسدت عليهم الخطط والمشاريع على ما يبدو.

كان هناك أحد أخوال شروق وابن له وشخص آخر عرّفوني عليه ثم نسيته. قلنا كلاما هامّا جدا على غرار (إيه – سبحان الله –الدنيا تغيرت – رياح "الشرقي" اليوم في طنجة...) !

هو نفسه ذلك الكلام السخيف المكرر الذي يقال في المناسبات الاجتماعية فقط لأنه ينبغي أن يقال، بينما لو تركت للجميع الحرية لفروا من هذا الموقف فرارهم من المجذوم.. وأنا أولهم.

انتهت الأمسية بقدوم العُدول وكتابة عقد الزواج. وهي لحظة فعلا كانت مهيبة. رغم بساطة الفعل المتمثل في التوقيع وقراءة الفاتحة إلا أنك تشعر أن حملا ثقيلا سيلقى على كاهلك بدءا من تلك اللحظة.. هذا إن كنت رجلا فعلا.

كنا قد اتفقنا أنا وشروق من قبل على مسألة المهر، والذي كان جزء منه فعلا في حوزتي مما احتفظت به من راتبي الذي أعلم أن شروق تبالغ فيه من أجل تحسين وضعيتي المادية بسرعة. في حين اتفقنا أن يبقى الجزء الآخر ديْنا أكمله فيما بعد.

انتهى كل شيء إذن وأصبحت شروق زوجتي على سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

تفرق الشمل الصغير وأوصلتني شروق إلى المنزل والسعادة الصادقة بادية في ملامحها، بينما أنا لازلت أغالب فرحتي وأحاول أن أخفيها بواقعيّة وصرامة كاذبة.

- بالمناسبة يا شروق.. كيف علمت أنني أنا هو عماد الذي أنقذ والدك؟ أم يخطر ببالك أن هناك "عمادا" آخر؟
- وتعتقد حقا أنني أغامر بوجود احتمال كهذا؟ لقد كان والدي – رحمه الله – يريد أن يكافئك وقتها، فترصدنا بك في مقهى الإنترنت حتى استطاع يوما أن

يلمحك ويرشدني إليك. ولقد طلبت منه أن يترك مسألة مكافأتك لي، ولم يكن كل هذا المخطط في بالي وقتها. لكنني ارتأيت أن شخصا مثلك، وجميلا كالذي قدمته لنا، ينبغي أن يقابله شيء مماثل. لهذا، بقيت أراقبك عن بعد وأنتظر اللحظة المناسبة، والمكان المناسب، لأكافئك كما يجب. حدث هذا، قبل أن تفاجأني أنت وتدخل للمقهى، ولا تدري كم كانت وقع المفاجأة قويا عليّ، ولعله السبب الذي جعلني أتجاهل النظر إليك دائما، حيث كنت في حيرة من أمري.. هل أصارحك أم أواصل لعبة الانتظار؟ ثم أخيرا، أتيتني تستشير في موضوع الكتاب، فانتهت الحيرة وطلبت منك اللقاء بأسرع ما يمكن، ولعلك تفاجأت طبعا حينها من تلك سرعة الموافقة. ولعله من غريب الصدف أن تأتي باحثا عن مساعدة في موضوع يهمني بشدة وهو تاريخ طنجة، وكان سيهم والدي أكثر لو كان لازال على قيد الحياة.

- **هذا يوضّح كل شيء فعلا.. والله إن الحيرة كادت تقتلني في كل مرة تقدمين فيها على خطوة ما.. كي لا أنسى.. ماذا عن موضوع ذلك الشخص خالد.. ما رأيك في استشارته؟**
- **مبدئيا لا مانع، فيبدو أنه يشاركنا في حب طنجة وتاريخها، بل وله تجربة تكاد تتطابق مع ما يحدث لنا، فهو استعاد لوحة تاريخية، ونحن نحاول استعادة**

مخطوط أثري.. مع اختلاف في بعض التفاصيل.. لكن عموما، دعنا لا نتسرع أفضل.. عندما نحتاجه نقصده.

- لك ذلك.. غدا نسافر للدار البيضاء لتقديم طلب التأشيرة إذن؟ !
- نعم غدا.. سيطلبها كل منا بشكل منفصل.. فعقود زواجنا لازالت لم تجهز بعد..
- نعم.. أفهم.. الله المستعان.. تصبحين على خير.
- وأنت من أهل الخير.

شروق زوجتي الآن. لكنني لازلت جافّ المشاعر بشكل كبير، أو أنني أفتعل ذلك. أحيانا أشعر بمشاعري كبركان يهدر، وأحيانا أفكر أن الكلمة الأخيرة ينبغي أن تكون للعقل، وأن أتمهل أكثر حتى يتضح الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

شروق، بذكائها اللماح، لا تطالب بأي شيء ولا تضغط. تترك لي هامشا كبيرا لأقدم على خطوة التعبير عن مشاعري، وهو ما أفعله.

في شرفتي أسترجع ذكريات الشارع فأغمض عينيّ وأفتحهما لأتأكد أنني لا أحلم. هل من الممكن أن تتغير حياة إنسان لهذه الدرجة، وبهذه السرعة عن طريق سلسلة مصادفات بهذه الغرابة؟ لكن، من قال إنها مصادفات؟ أليست المصادفة قدر؟ تولد شروق وتعيش حياتها ، وأولد أنا وأمضي في طريقي،

ونقطة التقائنا قد رسمت منذ الأزل. لا شيء عبثيّ أو مفاجئ. قد يبدو كذلك بالنسبة لنا، لكن متى كان عقل الإنسان قادرا على إدراك الحكمة من وراء أيّ حدث؟

لم أخبر أحدا من إخوان الشارع بما حدث لي لأنني أعرف أن الأخبار تنتقل بسرعة. وليس في صالحي إطلاقا أن يزورني حاليا على الأقل ولا واحد منهم لأنني سأفسد على شروق كل شيء. قد يراعي بعضهم ويتفهم، لكن آخرين – خاصة المدمنين منهم – لن يترددوا ثانية في زيارتي عشرات المرات في اليوم الواحد، وربما أكثر، من أجل الحصول على ثمن جرعات المخدرات مني باعتباري أصبحت مترفا في نظرهم.

محظوظ أنا لأنهم لم ينتبهوا لحدّ الآن أنني أشتغل في مقهى الإنترنت. يصعب عليهم ذلك في الحقيقة لأنهم لا يلِجونه إطلاقا، ويبدو أنني الوحيد الذي كان يخوض تلك المغامرة الجريئة.

مرّت ثلاثة أيام على تقديم طلبنا أنا وشروق. سافرنا في الحافلة لأن شروق لا تستطيع القيادة خارج طنجة لمسافة طويلة. شروق من النوع القلق الذي لا ينام في السفر، بينما كان رأسي يهوي على كتفها أكثر من مرة واللعاب يسيل من فمي، وأنا أغط في نوم عميق. أشعر معها بأمان غريب.. أمان طفل بين حضن أمّه. المشاعر المتدفقة بداخلي غطت على شعور فراق طنجة، فلم أنتبه له كثيرا.

تخرج شروق مبتسمة وهي تلوّح لي بجواز السفر المختوم بتأشيرة بريطانيا. "العقبى لك" تقولها وهي تبتسم. أسمعهم ينادون اسمي فيهوي قلبي بين قدميّ. هل ينتهي الأمر هنا.. أم أن الرحلة ستتواصل كما خططنا لها.. أو كما خططت لها شروق على الأقل؟

بل كما خططت لها شروق !

وها أنا بتأشيرة بريطانية عمرها شهران. الآن ينتهي الكلام الرنان. ينتهي التردد أو المواربة. الآن، نمرّ إلى السرعة القصوى وإلى التنفيذ.

عدنا إلى طنجة.

منهكا تماما أتمدّد على المرتبة بالمنزل طامعا في قيلولة أريدها أن تطول من الزوال حتى مغيب الشمس كي أستعيد حيويتي.

فجأة أسمع طرقا قويا ومتتابعا على الباب. من يكون يا ترى؟ بالتأكيد هي شروق ولا أحد سواها.

- **شروق، ماذا هناك؟ لمن تركت المقهى؟**
- **دعك من المقهى الآن.. هناك جديد خطير في الموضوع؟**
- **ماهو؟**

- لقد وقع "الدندول" في قبضة الأمن!

- هل أنت جادّة.. إنـها كارثة فعلا !!

-18-

مرّت الرحلة بسلاسة من طنجة إلى مطار الدار البيضاء ولم يحدث شيء. كانت هناك بضع نقاط تفتيش، وصعد فعلا رجال درك تفحصوا الوجوه ثم غادروا دون أن يتم توقيفي. إنها واحدة من أكبر ميزات التشرد.. أن تكون شخصا مجهولا الهوية لا يمكن التعرف عليك بأية وسيلة، إلا إذا أتى الشاهد أو المبلـِّـــغ وأشار إليك بسبابته.. عدا هذا، أنت في أمان دائما.

كانت قد أصبحت عادة لدى منير أن يعترض طريق شروق من حين لآخر ويبتزّها بطريقة غير مباشرة طالبا منها 5 أو 10 دراهم. شروق لم تبالي كثيرا وكانت تمنحه إياها معتبرة ذلك صدقة ثم تمضي في طريقها. في ذلك اليوم بدا لها مرعوبا ومهتزّا، وعندما لاحظ هو نظرتها المتسائلة إليه قرّر الاستفادة من الأمر إلى أقصى حدّ، فطلب منها مبلغ 500 درهم مقابل إخبارها بأمر يخصّ عماد، والذي يعرف أنها تهتم لأمره.

أخبرها منير أنهم قبضوا على "الدندول" وأنه يشعر بدوره قادم لا محالة، ويريد أن يغادر المدينة حتى تهدأ

الأمور. منحته ما يريد ثم غيرت وجهتها نحو منزلنا بدل مقهى الإنترنت لتخبرني.

كان كلّ خوفي أن يتمّ إقحام شروق في الموضوع بشكل ما. منير يعرفها من خلال سؤالها عني. "الدندول" شاهدها يوم أتت تبحث عني في ذلك المخبأ، وإن كنت أرجو ألا يكون قد تفرّس في ملامحها بشكل جيد.

لو غادر منير طنجة فعلا فأعتقد أنه لا خوف علينا. "الدندول" لن يقدم لهم أية معلومة باستثناء اسمي الشخصي، أما شروق فلا يعرف عنها إلا صوتها، وربما بعض ملامحها.. وهذا يجعل التعرف عليها صعبا جدا.

إنهم يبحثون عن متشرد اسمه عماد. وأنا – الآن – شابّ عادي اسمه "عماد الطنجاوي" ويعيش حياة عادية، بل ويهمّ بالسفر إلى بريطانيا. يستحيل أن يربطوا بيني وبين الحدث.

مع قطع الحافلة للكيلومتر تلو الكيلومتر بدأت نفسي تهدأ تدريجيا.

أخيرا، ها أنذا أصعد الطائرة لأول مرة في حياتي. شعور غريب ذاك وأنت تجلس فوق لا شيء. خطأ صغير جدا.. هفوة ما.. ونصير كلنا رمادا. انتابني بعض الهلع عندما أقلعت الطائرة وعندما كانت تهم بالنزول.

أتسلى قليلا، وأنا بالطائرة، بتصفح المعلومات التي قمت بتحميلها عن "فيلا هاريس". بدا لي أن الفيلا نفسها كنز لا يقدر بثمن، لكن لا أحد أدرك قيمته فتمّ إهماله. أو، بالأصحّ، أدركوا قيمته فأهملوه. الوجهان معا محتملان.

"والتر هاريس"، صاحب الفيلا، كان صحافيا شهيرا، ويقال أيضا أنه كان جاسوسا. وقد كان يراسل جريدته "التايمز" من طنجة. عندما توفي أوصى بدفنه في الفيلا، لكن شخصا ما قرّر أن يحرف الوصية قليلا ويدفنه بالمقابر البريطانية بطنجة، ولازال قبره موجودا فعلا إلى الآن.

الفيلا كانت تحفة بيئية أيضا، لأن هاريس غرس بها نباتات نادرة أحضرها من أماكن مختلفة حول العالم. بنى الرجل مسرحا مصغرا (أذكر الآن بخجل أننا كنا نتبوّل فيه دائما)، وكانت تقدم فيه عروض مسرحية خاصة له ولأصدقائه الذين كان صاحب الكتاب المفقود واحدا منهم.

أسرار كثيرة وعجيبة تعرفت عليها من خلال معلومات متفرقة، على رأسها مذكرات كتبها والتر هاريس نفسه، يصف من خلالها تفاصيل اختطافه من طرف المقاوم الجبلي آنذاك "مولاي أحم الريسوني" وطلبه لفدية مقابل إطلاق سراحه.

الوحش المعدني الطائر أدّى مهمته ونزل بنا بنجاح، وها أنا أخيرا بمطار "هيثرو" الدولي.

في الدار البيضاء كانت المسألة سهلة مع مغاربة مثلي، لكن هنا، يبدو أنني سأعاني الأمرين من أجل الخروج والعثور على مقر إقامتي.

استنجدت بطريقة خفية بأحد رفقاء الرحلة وكان مغربيا مثلي، تتبعت خطواته وأنا أتظاهر أن مسألة السفر بالنسبة لي هي بمثابة شيء أمارسه يوميا.

أتظاهر بالتعوّد، بالبساطة.. سلاحي الصمت والمراقبة وتتبع الخطوات. حتى الضابط الذي يراقب الجوازات لم أبادله الكلام إلا بهمهمات وإشارات تؤكد أو تنفي أسئلته.. لو فعلتُ لكان صوتي خرج مبحوحا مرتبكا، وأنا لا أريد لهذا أن يحدث. لقد بدأ النفاق الاجتماعي يسكنني أنا أيضا وبدأت أبحث عن "البريستيج".

كنا قد راجعنا أنا وشروق مسار الرحلة أكثر من مرة من خلال خريطة غوغل. عندما خرجت توجهت مباشرة إلى محطة الميترو وأنا أبدو فعلا كبدويّ في روما. هذا عالم آخر علي أن أقضي نفس ما قضيته في طنجة من عمر لأتعود عليه وأفهمه.. وربما أكثر.

من خلال المترو أرى في محطاته أن هناك متشردين أيضا، وأشعر بقربي الروحي منهم. لماذا لم يقرر متشردو العالم إنشاء تحالف؟ سؤال مضحك خطر ببالي فجأة وأنا أتأملهم وأقارن بينهم وبين متشردي طنجة. سأعرف فيما بعد أن مسألة التشرد هنا في الغالب تكون عن اختيار أو ناتجة عن صدمة نفسية أو مالية ما، وليست مسألة تبدأ منذ الصبا مثلما يحدث معنا. أي أنها اختيار إنسان راشد، وليس واقعا يفرض نفسه على طفل لم يبلغ الحلم بعد أو حتى رضيع أحيانا.

في ذلك النـّـُزل البسيط الذي حجزنا فيه أنا وشروق غرفتنا أضع حاجياتي وأغتسل مستعيدا نشاطي وانتباهي. ذلك الشعور بأنني أحلم فقط لازال يسكنني لحدّ الآن ولا أدري متى سأتخلص منه.

أتساءل إن كانت هذه الثروة التي خسرتها شروق مقابل تنفيذ هذه الخطة ستنفع في الأخير وستعود علينا بثروة أكبر؟ أم أن الندم والحسرة سيكونان من نصيبنا؟ لا جواب لحدّ الآن.

أطل من نافذة الغرفة لأتأكد أن اختيارنا كان صائبا، فأجد ذلك المنزل أمامي كما شاهدتُ صوره على خريطة غوغل. إنه مكان إقامة "آلفي".. بين نافذتنا وبينه أمتار

معدودة. من هنا ستسهل المراقبة وسيسهل تدبير خطة محكمة لاستعادة الكتاب.

أتأمل المنزل المكون من طابقين وأحاول أن أتخيل مكان الكتاب. أين وضعته أيها اللص الوغد؟ أين تخفيه وأنت تدرك قيمته؟ بالتأكيد ليس في المكتبة ولا في مكان ظاهر.

أحدهم يحرك الستائر ويفتح النافذة ثم يطلّ منها. والله إنه هو... إنه "آلفي"، يستحيل أن أنسى وجهه المتظاهر بالبراءة.

- مرحبا بك أيها اللعين.. سيكون بيننا حساب عسير.. أعدك بذلك.

-19-

- (رسالة توصّلت بها من خالد)

مرحبا صديقي عماد،

قرأت رسالتك الإلكترونية المطولة ثلاث مرّات كي أستطيع استيعابها جيدا والإحاطة بتفاصيلها. لو حكى لي أحدهم شيئا كهذا قبل عام ونيف لاتّهمته بالخبل والخرف. لكن بعد ما مرّ بي وبعد ما رأيت أنا نفسي، وجدتني أميل إلى تصديق حكايتك ولو حتّى حين.

أشكرك لأنك وثقت بي ولأنك طلبت مساعدتي. لا أدري لماذا اعتقدتَ أنني قد أكون مفيدا في كل هذه الحكاية؟ صحيحٌ أن قصّتينا تتشابهان نوعا ما في المجمل، فكلانا كافح من أجل استعادة تحفة من تحف طنجة.. وكلانا فعل هذا من أجل طنجة.. ومن أجل نفسه أيضا ! أنا كنت أريد الانتقام، وأنت تريد المال على ما يبدو.

لكن، هل يجعلني هذا مفيدا حقّا لك ولزوجتك؟ هل يمكن أقدم قيمة مضافة في صراعكما؟

مبدئيا، كنت سأحاول المساعدة برأيي عن بعد، وهو أقصى ما أستطيع أن أقدمه فعلا. لكن التطور الأخير الذي حدث لا يترك لي خيارا. اختفاء زوجتك شروق بهذا الشكل الغامض هنا بينما كنت تنتظرها في لندن، هو أمر قاس ومفاجئ جدا.

حسنا فعلت عندما لم تخبر والدتها بشيء. بالتأكيد ستسقط في مكانها وستصبح المصيبة مصيبتان. حاول أن تواصل المناورة وأن تخبرها أن شروق تعبة وأنها منشغلة، أو أنها وصلت مطارا آخر بالخطأ وهكذا، حتى نرى ما نستطيع فعله.

أخبرتني أن آخر اتصال لك مع شروق كان في قبل مغادرتها محطة حافلات طنجة، ثم بعدها انقطع الاتصال تماما، ولم تصل في الطائرة التي كان يفترض أن تركب فيها.

هذا يعني أن شروق فقدت بين طنجة والدار البيضاء، أو في محطة الحافلات نفسها قبل الانطلاق.

السؤال الآن: لو كانت شروق قد تعرضت لحادث عارض عادي كمرض أو فقدان وعي، كنتم بالتأكيد ستعلمون بذلك عاجلا أو آجلا (وهو أمر لازال واردا نوعا ما). شخصيا، أرجّح أنها اختطفت.. للأسف.

أعرف أن هذا الكلام قد يكون قاسيا، لكن نظرا لتسلسل الأحداث كما رويتَها لي فشروق كانت ضحية لرغبة البرلماني عبد القادر رشيد في الانتقام ممن خطف ابنته.

وحسب الأوصاف التي ذكرتها، فرجل كهذا لن ينسى بسهولة حادثة اختطاف ابنته، وسيبحث دون كلل ليل نهار حتى يعثر على الفاعل. وأكيد أن ردة فعله أيضا لن تكون عادية، فهو قد يستعين بالأمن مثلا للعثور عليكم. لكن العقاب سيحاول أن ينفذه بنفسه.

طبعا، هي في الأخير مجرد استنتاجات مبنية على تفاصيل ما قرأته في رسالتك، قد تخطأ وقد تصيب. لكن، على العموم، الناس لا يتبخرون، ومادامت شروق قد "ذابت" بهذا الشكل المفاجئ، فهي في الغالب مختطفة.

المشكلة الآن أن الوقت قصير وأن الخيارات محدودة. فمن جهة، لا بد أن نصل إلى شروق بأسرع وقت ودون إخبار الشرطة، لأنها ستخبر والدتها، وسنكون أمام مشكلة حقيقية. بل قد يؤدي هذا لاستجوابك أنت بالدرجة الأولى باعتبارك الشخص الغامض الذي ظهر في حياتها فجأة.

من جهة ثانية، عليّ أن أقوم بهذه المهمة وحدي على ما يبدو لأن عودتك غير ممكنة بتلك السرعة في الوقت

الحالي ولن تقدم ولن تؤخر. أسهل شيء هو أن تضحي بالكتاب طبعا وتعود من أجل شروق، لكن ما الذي يمكن أن تضيفه عند قدومك؟ أعرف أنك أكثر دراية مني بعالم الشارع ويمكن أن تقوم بتحريات بشكل أفضل، لكن ما رأيك أن تقوم بذلك من هناك وأن توجهني قدر الاستطاعة بينما أنا أنفذ وأجتهد من هنا؟

الآن، لو أردنا تقسيم المهام فسيكون الأمر كالتالي: أنا أبحث عن شروق. أنت تبحث عن الكتاب وتعيده.

لو نجت شروق، وهذا ما نأمله، فستكون سعيدة أيما سعادة باستعادتك الكتاب (شرط أن يكون هذا بأقصى سرعة طبعا). لو لم تنج، لا قدر الله، فأنت ستكون قد فعلت ما عليك وأنا معك.

سأحاول ما أمكن أن أبدأ منذ اللحظة البحث من آخر مكان انطلقت منه شروق، وكذا من خلال ابنة البرلماني، دون أن يشعر أحد. أنت من جهتك، وحاول أن يكون ذلك دون أخطاء، احرص على استعادة الكتاب بأقصى سرعة ثم العودة إلى هنا لنواصل البحث معا إن كنت قد عجزت عن إيجاد شروق.

قد تستغرب اتخاذي لهذا القرار السريع، لكنني كما قلت لك قرأت رسالتك ثلاث مرات وصدّقتها، والحقيقة أنه

يصعب على أي إنسان أن سختلق كل تلك التفاصيل وبتلك الدقة.. أي مزاج هذا وأي جنون قد يجعل المرء يفعل ذلك؟

سبق لي أن تعرضت لمقلب سخيف غيّر اتجاه حياتي. لكنني مع ذلك لازلت هو نفس الشخص ولم تفلح تلك النائبة، التي قرأت عنها بالتأكيد في الصحيفة، في أن تجرّدني مما أومن به.

أنا رجل شبه وحيد كما تعلم، وكنت أنوي أن أسافر لألتحق بزوجتي في بلجيكا بعد أيام قليلة، لكنّك الآن تحتاج لي، وزوجتك قد تكون في محنة لا يعلمها إلا الله.

يبدو أن ما يسمى بقانون الجذب يعمل بشكل جيد. ويبدو أن استعادتي لإحدى تحف طنجة (لوحة الموناليزا المغربية أو زهرليزا)، جعل كل من يفقد تحفة يلجأ لي.. ولا أدري إن كانت نعمة أم نقمة.

أنتظر أن توافيني بجديدك أولا بأول من خلال رسائل إلكترونية مطولة تحكي لي فيها كل شيء بالتفصيل. لا أستعمل الهواتف الذكية لأنها تجعلني أشعر بغباء لا حدود له. لا زلت وفيا لحاسوبي ولا يبدو أنني سأنتقل إلى مرحلة أخرى في القريب العاجل.

وأنا أيضا سأحيطك علما بكافة التطورات بمجرد ما أبدأ بحثي، وهو ما سأفعله مباشرة بعد انتهائي من كتابة هذه الرسالة.

بقي أمر أخير، وهو أنني اخترت – أثناء كتابة الرسالة – أن أصدقك وأن أتبع حدسي، وليكن ما يكون. ما عشته أنت ليس بالقليل وقد أجهشت بالبكاء فعلا في أكثر من لحظة وأنا أقرأ رسالتك، خاصة معاناتك في عالم الشارع.

أنت رجل وحيد تحتاج رجلا شبه وحيد.. فلنكن رجلين إذن، صديقين وغير وحيديْن.

كنت قد بدأت كتابة رواية منذ مدة. والآن يبدو أنني سأوقفها وأبدأ كتابة رواية أخرى بتفاصيل مختلفة، يكون بطلها متشرد. ما رأيك؟

دعنا من هذا الآن، وركز في بحثك ودعني أركز في بحثي. أتركك في أمان الله.

-20-

شروق لم تظهر بعد. أنتظر الجديد من صديقي الجديد خالد، لكن للأسف لا أخبار. يقولون أن عدم وجود خبر هو خبر جيّد في حد ذاته. في كل الأحوال لازال هناك أمل. لكن الوقت ثمين جدا في مثل هذه الأحداث، والهواجس والأفكار السوداء لا تنفك تهاجمني وأنا في غربتي القصيرة القسرية.

أتجول في شوارع لندن هائما على وجهي، حائرا، متسائلا: ما هي الخطوة الأنسب الآن؟ !

هل أعود إلى الديار أم أحاول استعادة الكتاب بسرعة ثم العودة. أفكر وأفكر. أجهدُ عقلي. أبتعد ما أمكنني ذلك عن الفندق وعن منزل "آلفي". لا أريد أن يشاهدني مصادفة فيتذكرني أو حتى يراوده الشك. هذا يعني ضياع كل شيء. شروق والكتاب.

التردد قاتل، وعليّ اتخاذ قرار حاسم. هنا والآن. كنا قد خططنا أنا وشروق على أساس البقاء في لندن أسبوعين كاملين. الآن يبدو أنني سأتخلى عن تذكرة العودة وسأكون مضطرا لشراء تذكرة أخرى لأعود في أسرع وقت. وجودي هناك أفضل من وجودي هنا.

يمكنني أن ألبس لباس المتشرد من جديد وأعود للشارع حيث سأجد بالتأكيد طرف خيط يقودني لشروق. بدأت أشعر أن الملابس الحالية الجديدة تقيدني فعلا. اشتقت إلى المشي حافيا أحيانا، وتلك اللامبالاة بنظرات الآخرين.

الضباب يلفّ لندن وأنا أخيط شوارعها. لو كنت في حال آخر، لاستمتعت بأكثر من شيء، لكنني بالكاد أستطيع تمييز طريقي من شدة همي وانشغالي وقلقي على شروق.

من يصدق هذا؟ من التشرد إلى لندن. ثم في لندن أنوء بهموم كالجبال لا يطيقها إلا العصبة أولو القوّة.

المقاهي هي ملجئي الوحيد كلما تعبت. أدخل وأطلب شايا بالنعناع، فأكتشف أن هناك فراق كبيرا بين شاينا وشايهم. لا مذاق لهذا الشاي إطلاقا، كأنه ماء دافئ فقط. ما أروع شاي الوطن بمذاق نعناع غذّي بتراب غير التراب.

فيما بعد، بدأت أطلب قهوة سوداء، فهي التي لا يختلف مذاقها بين الدول إلا نادرا. أراقب الوجوه والناس. الحقيقة أنه لا فرق بين أن تكون متشردا أو إنسانا عاديا في لندن. لا أحد سيلتفت إليك في كل الأحوال. الناس منشغلون جدا بأعمالهم أو بمن يجاورهم في جلساتهم في

المقاهي أو الميترو، أو منغمسون في هواتفهم وكمبيوتراتهم اللوحية.

تشعر أنهم مرتاحون كذلك. شعارهم "دعني وشأني وسأدعك وشأنك". أحيانا يخيل إليّ أنني الوحيد الذي يجول ببصره في وجوه الناس والأماكن حتى أنني بدأت أخجل فعلا وأشعر بنوع من الوقاحة، فقررت أنا أيضا أن أتأمل الأماكن بصفة عامة وأغض بصر عن خلق الله. هكذا أفضل.

قررت إذن أن أقوم بأول خطوة وهي حجز تذكرة العودة. سأمنح نفسي مهلة ثلاثة أيام كي أتصرف فيها. فإما نجاة وإما هلاك. العرب موجودون بكثرة في لندن، ويمكنك ببعض الكلمات أن تعرف وجهتك. أرشدني أحدهم إلى مكتب للسفريات فحجزتُ تذكرتي بنقود سائلة. لدي بطاقة بنكية منحتني إياها شروق، لكنني أحتفظ بها للطوارئ. لا أريد أن يبتلعها لي أحد الشبابيك الأوتوماتيكية فأدخل في متاهة جديدة.

كانت الخطة المبدئية لدينا أنا وشروق هي اقتحامي منزل آلفي أثناء غيابه والبحث عن الكتاب. لكنني حوّرت الخطة قليلا وقررت أن أقتحمه في وجوده، وقبل ساعة واحدة من موعد سفري. هكذا، أضمن حصولي على الكتاب لأنني سأرغم آلفي على إرشادي لمكانه، وأضمن أن آلفي

لن يجد الوقت لملاحقتي لأنني سأتركه مقيدا وسأطير بعدها مباشرة نحو المغرب.

ترصّدت آلفي حتى تأكدت أنه فعلا لا يحيد عن موعد عودته، وهو التاسعة ليلا. يستكشف صندوق رسائله. ينظر يمينا ويسارا، يتفحّص هاتفه، ثم يدخل.

هناك نتوء في زاوية منزله يبدو لي أفضل مخبأ في انتظار قدوم آلفي. في اللحظة التي يفتح فيها الباب سأنقض عليه وأدفعه إلى الداخل ثم أبدأ لعبتي التي لم تُـنسنيها هويتي الجديدة.. العنف.

الحقيقة أنه ليس لدي خيار آخر. أيّ لطف مني أو إبداء تردد قد يمنح آلفي فرصة للمماطلة، بل ربما لصد الهجوم، وهذا لن يكون في صالحي أبدا.

عماد أرسل لي رسالة جديدة يؤكد فيها أن الأمور لازالت على ما هي عليه، وأنه يحاول أن يطمئن عن بعد على والدة شروق وخادمتها. ويبدو فعلا أنهما لا تعلمان شيئا لحدّ اللحظة.

أجيبه برسالة مقتضبة شاكرا إياه، ومخبرا إياه بخطتي الجديدة، موصيا إياه بالاعتناء بشروق إن حصل لي مكروه.

التاسعة إلا 10 دقائق. أخرج من النّزل بسرعة وأتظاهر بالتسكع متوجها نحو مخبئي المحدد مسبقا. أقف هناك لفترة، ثم أندس خلف ذلك النّتوء منتظرا وصول آلفي.

يصل آلفي في تمام التاسعة كالعادة. يتفحص صندوق بريده. ينظر إلى هاتفه لثواني ثم يواصل السير ببطء. يفتح الباب ويدخل فأنطلق كالسهم مخترقا الباب ناويا دفعه نحو الداخل فلا أجد سوى الفراغ. هذا، قبل أن أسمع صوتا غريبا من خلفي وكأنه صوت تماسّ كهربائي، أستدير فأجد ألفي وقد ألصق بجسمي صاعقا كهربائيا، ثم عمّ الظلام كل شيء !

-21-

وأنا بين الحلم واليقظة أتساءل لماذا لا تلفح الشمس وجهي كالعادة كلما استيقظت صباحا؟ أمدّ يدي لأتحسس الصخر أو التراب فلا أجد شيئا، بل إن يدي بالكاد أتحرك.

أحاول أن أستعيد تركيزي تدريجيا، فأدرك أنني لست بأحد شوارع طنجة أو دروبها التي تعودت النوم فيها، بل أنا في منزل أوروبي أنيق ملي بالتحف.

أغلق عينيّ من جديد وأسترجع ما حدث. لقد كنت أنوي مهاجمة آلفي ثم استعادة الكتاب. فما الذي حدث؟

نعم، لقد أفقدني اللعين وعيي بصاعق كهربائي، ولازالت آثاره على وعيي وعلى جسدي واضحة كما يبدو. أفتح عيني وأديرهما في المكان ثم أتفحص جسدي فأجدني مقيدا إلى كرسيّ.

صوت جلبة خفيفة ثم يظهر آلفي وفي يده كأس بيرة. يرشف منه ويرمقني بنظرات فاحصة مستكشفة وهو يروح ويجيء أمامي.

في يده جهاز. هل سيصعقني من جديد أم ماذا؟ يقربه من فمه ويتحدث بالإنجليزية ثم ينتظر. بعد هنيهة يخرج صوت آلي

متحدثا بالعربية. هو جهاز ترجمة إذن.. الرجل مجهز إلى أقصى حدّ على ما يبدو.

سأحكي لكم الحوار الذي دار بيننا متغاضيا عن رداءة الترجمة التي كانت تصلني من ذلك الجهاز.

- **من أنت وماذا تفعل هنا؟**

أحرك رأسي وأمط شفتي دلالة على أنني لا أملك إجابة. أحاول أن أماطل وأنا أفكر في طريقة للخلاص. لو كان قد اتصل بالشرطة فسأكون في ورطة حقيقة. مبدئيا يبدو أنه لم يفعل. أظن أن فترة فقداني لوعيي كانت كافية جدا لتتصل الشرطة. رغبته في معرفة ما أتى بي توحي أنه يريد أن ينهي الأمر بطريقته.

- **أكرر سؤالي.. من أنت ولماذا هاجمتني؟**

يقرب الجهاز من فمي فأجيبه محاولا أن تكون لغتي سليمة كي تصله الترجمة واضحة. واضح جدا أنه أدرك أنني عربي من النظرة الأولى.

- **الحقيقة أنني لا أفهم ما الذي حدث. لم أكن أنوي الهجوم عليك إطلاقا. كنت فقط أريد الدخول للاحتماء بمنزلك من أشخاص يطاردونني.**

هكذا فجأة جاءتني هذه الفكرة. آلفي لم يتعرف عليّ. لا يبدو أن لديه أعداء سابقين، وإن كان منزله المليء بالتحف مغر لأي لصّ.. لكن شريطة أن يعلم هذا اللص ما يوجد بالداخل.

- تعني أنك لم تكن تترصد بي؟
- إطلاقا.. أنا مجرد مهاجر عربي كما ترى، وكانت هناك عصابة تطاردني.. كنت أختبأ خلف ذلك البروز بمنزلك قبل أن أشاهدك تفتح الباب، وخوفا من لحاقهم بي لم أشعر إلا وأنا ألحق بك.
- وتريدني أن أصدقك..؟ !
- أظنك ستفعل لأنك بالتأكيد شاهدتهم وهم يبحثون في الجوار..

مرّة أخرى كانت رمية من غير رام. مجرد حديث حاولت أن أجعله واثقا على قدر استطاعتي.

- لم أشاهد شيئا ولا يهمّني أن أفعل.. المهم أنك اقتحمت منزلي وأنني مضطر لإبلاغ الشرطة..

قالها وكأنه يقول لي "أعطني سببا وجيها لأطلق سراحك". شعرتُ أنه لا يريد إطلاقا إقحام الشرطة في الموضوع. فكرت أن أفضل طريقة هي استمالته على قدر الاستطاعة وكسب تعاطفه أو ثقته.

- صدقني يا رجل.. لم أكن أريد أي شرّ.. أنا مجرد رجل مُطارد من طرف عصابة اعتقدت أنني أمتلك أشياء ثمينة، لمجرد أنني عربي.. تعرف أنت هذا النوع من العرب الأثرياء المتواجدين بلندن. ومن رعب العصابة إلى صاعقك الكهربائي.. يبدو أن لندن لا ترحب بزوارها وسياحها.

آلفي متردّد. يريد أن يصدّق وينهي الموضوع، لكنه يخشى أن يُخدع. يشتغل تفكيري من جديد بسرعة محاولا إيجاد أكثر من مخرج وإلقاء أكثر من صنارة، علّها تفيد في الخروج من هذه الورطة الرهيبة. أواصل إذن حديثي مع ألفي:

- عموما، صاعقك الكهربائي كان أرحم من تلك العصابة التي كانت في الغالب ستقتلني حتى بعدما أخذوا كل ما أملك. ولحسن حظي أنني لم أكن أحمل معي ذلك الأثر النادر الذي حملته معي من بلدي.

ومرّة أخرى، أرى نفس ردّ الفعل الذي أبداه آلفي عندما رأى الكتاب لأول مرة في طنجة. نفس العيون المتسعة، المتعطشة. ومرة أخرى، يستعيد آلفي توازنه بسرعة ويتظاهر بعدم الاهتمام:

- هل تحاول أن تخدعني بعدما رأيت هذه التحف بمنزلي.. إنها مجرد نماذج مزورة.. فلا تحاول أن تكون ذكيا.
- يستحيل أن تكون كذلك.. ذلك الكتاب مثلا عن الحرب العالمية الثانية الذي كتبه "شنايدر عمر".. أعرف جيدا أنه لا توجد سوى نسختان منه حول العالم.. ولا أظن أن أحدا يمتلك هذا المزاج لتزوير أكثر من 200 صفحة !!

هذه المرّة استثمرت ذاكرتي بشكل جيد. أثناء بحثي عن معلومات إضافية عن آلفي كنت قد وجدت أنه يعرض تحفتين أخريتين للبيع بموقع "إي باي"، وقد كان هذا الكتاب واحدا منهما. وأذكر عنه معلومات لا بأس بها، أهمها اسم الكاتب الذي ذكرني باسم أحد لاعبي كرة القدم، وكنت قد تساءلت وقتها كيف يمتلك الكاتب اسما عائليا عربيا وهو "عمر".. قبل أن أتجاوز الموضوع ككل.

يسألني آلفي:

- وما هو هذا الأثر الذي حملته معك من بلدك.. وما هو بلدك؟
- بلدي هو المغرب، أما ما حملته معي فهو الأفيش الأصلي لـــفيلم Flight To Tangier الذي أنتج سنة 1953.

فكرت أن أختلق قصة أخرى وأدعي أنني من بلد عربي آخر، لكنني كنت سأتورط بسرعة عند أي سؤال آخر حول التفاصيل. بينما لو كنت صادقا في جزئية الهوية فسيزداد يقينا بصدقي، خاصة أن جواز سفري معي ومن السهل جدا أن يكشف أي خدعة من ذلك النوع، إن لم يكن فعلا قد اطلع عليه أثناء غيبوبتي.

أطلق آلفي زفرة قوية وكأنه تخلص من عبء كان يثقل ظهره. قام بفسخ قيودي بصمت، ثم أخرج من جيبه مسدسا، ولوح لي بأن أغادر.

شكرته وأنا بالكاد أستطيع أن أجمع شتات جسدي المصاب. طلب مني رقم هاتفي وهو يتظاهر بعدم الاهتمام. يبدو أن مسألةإعلان الفيلم قد آتت أكلها.

منحته له وأنا أتظاهر بالسرور، وإمعانا في كسب ثقته سألته متظاهر بلعب دور التاجر المحنك:

- هل يهمك أن تقتني مني إعلان ذلك الفيلم؟ صدقني سأقدم لك عرضا لن تحلم به..
- سأتصل بك بعد أن أطلع أكثر على الفيلم أولا، ثم على قصة الإعلان.. والآن إلى اللقاء، وحاول ألا أراك من جديد بالجوار لأن الشرطة ستكون هي الفيصل حينها..

كنت سأخبره أنني أجاوره فعلا، لكنني ارتأيت الاحتفاظ بهذه التفصيلة كي لا أكشف كل أوراقي. لو تذكر مثلا في لحظة ما أين رآني، فسيبلغ الشرطة بمكان إقامتي وينتهي الموضوع.

أصعد درجات الطابق الأول من الفندق وأنا سعيد بنجاتي، مهموم من كثرة المصائب التي حلـّـت بي.

إحدى النزيلات تهم بفتح باب الغرفة باب غرفتي.. من هذه؟ ! يهوي قلبي بين قدمي وهي تستدير نحوي:

- شـــــــــــــــــروق !!!!!!!!!!

-22-

بقيت في حضن شروق لما يزيد عن 5 دقائق كاملة منذ رأيتها وانطلقت نحوي. لم أحظ يوما بحنان مثل هذا، بشوق كهذا، بحضن حقيقي كهذا. أخيرا، شروق هنا. إنها بخير. جسدها سليم ووجهها كما رأيته أول مرة.. مشرق باسمٌ متفائل.

في غرفتي نتحدث. نقول كل شيء ولا نقول شيئا. بالكاد أسمعها أو تسمعني ونحن نتحدث في نفس الوقت. بنا معا شوقٌ عارم للكلام، لمعرفة ما حدث، لنحظى بجلسة رومانسية هادئة، لطالما خلتُ أنني سأحرم منها إلى الأبد.

شروق لا تتخلى عن مرحها ومزاجها الطفولي اللطيف وتطلب مني أن أكون أنا أول من يحكي ما حدث قبل أن نعرّج على روايتها. تغلق فمها وتومئ لي دلالة على أنها لن تقول كلمة أخرى إضافية حتى أنتهي أنا من سرد قصتي .

أحكي لها وهي تتفاعل معي برفع حاجبيها، بعقدهما. تتسع عيناها. تمط شفتيها. تضحك. تبكي. لكنها لا تقول شيئا. أنتهي من كلامي وأزفر بقوّة معلنا انتهائي من الحديث، وأشير إليها أن تبدأ هي ثم أقوم بإغلاق فمي مقلدا طريقتها في دفعي للكلام. تقول شروق:

-كان كل شيء يسير على ما يرام. ركبت الحافلة فعلا في طنجة. بعد حوالي ساعتين ونصف توقفت في باحة الاستراحة بمدينة العرائش. في يدي قنينة مياه وأنا أتجول بين أشجار ذلك المكان الهادئ محاولة ألا تغيب الحافلة عن ناظري ولا الركاب. لديّ وسواس لا بأس به بخصوص الكوارث التي تحدث في الأسفار. على رأسها أن تفقد حافلتك وتجد نفسك وحيدا في مكان مجهول ودون أمتعة، وربما دون سنتيم واحد. شعرتُ أن أحدهم يراقب تحركاتي عن بعد لكنني لم ألق بالا للأمر واعتقدت أنه واحد من المستظرفين. في الغالب هو شابّ يعتقد أن فتحه أزرار قميصه كاف جدا كي تسقط أي فتاة صريعة هواه. أبتعد قليلا فأشعر أن هناك إصرارا مبالغا من طرف ذلك الشخص على ملاحقتي. هو إذن شخص لجوج مزعج كذبابة صيف. وهذا النوع يحتاج صرامة سافرة. توقفت عن السير واستدرت لأواجهه بينما هو خفف من سرعة خطواته وإن كان لم يغير وجهته متجها نحوي. أدقق النظر فيه فأشعر أنني أعرفه رغم محاولاته إخفاء هويته بتلك القبعة الرياضية. قبل أن أفوه بكلمة، أشعر بيد تطوقني من عنقي وأخرى تضع منديلا مشبعا برائحة كريهة على أنفي .

-يا إلهي.. اختطاف؟

-نعم، مع سبق الإصرار والترصد. لم أستفق إلا وأنا في منزل حديث غير مؤثث. رعب شديد انتابني. فكرت في أمي وفيك

وقتها. في عذابكما وأنتما تبحثان عني، خاصة لو تم التخلص مني دون ترك أثر. حسنا، لن أطيل عليك وسأختصر لك أيام العذاب في جمل قليلة. لقد كان من خطفني هو منير و"الدندول" وشخص آخر بإيعاز من رجل ذي سلطة خشيا أن يذكرا لي اسمه، وبالتأكيد لن يكون غير عبد القادر رشيد. تركوني دون طعام ولا شراب لمدة يومين قبل أن يمنحوني وجبات شحيحة. لم أتعرض لأي تعذيب وإن كان منير قد أخبرني أن المرحلة القادمة ستكون أسوأ إن لم أخبرهم بمكان وجودك. منير الوغد هو من أخبرهم عني، وأكد لهم أنني نقطة الانطلاق لإيجادك بعد أن تعبوا في البحث عنك دون جدوى. قبل يومين، شعرت بباب الغرفة التي حجزت فيها يفتح بشكل يدل على أن صاحبه لا يريد أن يحدث صوتا. انتابني خوف شديد وهواجس. هل بدأت مرحلة التخويف والإيذاء. لحسن حظي كان الزائر هو "الدندول". أخبرني أنه لن ينسى لك مواقفك الرجولية معه في الشارع أكثر من مرة، لذا منحني حقيبتي التي تحوي كل أوراقي، ثم منحني هراوة وترجاني أن أضرب رأسه بكل قوة. فتلك طريقته الوحيدة لإثبات صدقه وإثبات أنني فككت قيودي وهربت بعد أن أفقدته وعيه. طبعا ترددت وطلبت منه مراجعة خطته، لكنه كان مصرا. قال لي أن نوبة حراسته ستنتهي بعد ساعة وأنني إن لم أسرع فسأفوت فرصة العمر. ماذا أقول لك؟ رغم إشفاقي على "الدندول" لكنني أفرغت في تلك الضربة كل خوفي وغضبي وقلقي. تركت "الدندول" مجندلا هناك، وأسرعت في سيارة أجرة

خاصة نحو الدار البيضاء. هناك رتبت أموري بنوع من الهدوء.. قطعت أول تذكرة نحو لندن.. استعدتُ حقيبتي من محطة الحافلات، حجزت فندقا ثم اشتريت كل ما أحتاج على أساس ألا أخرج من الغرفة إلا نحو المطار.. وذلك ما كان فعلا.. وها أنا ذي أمامك.

غرقنا في التفكير للحظات أنا وشروق بعد أن انتهت من حكايتها. كلانا يفكر في الخطوات القادمة. في أفضل طريقة للتصرف. في الانتقام. في إنهاء هذا العذاب الذي طال. من محنة إلى أخرى، كأننا في قلب إعصار يأبى أن يتوقف. ذلك الحقير عبد القادر لازال مصرّا على إيذائي. لم يكفه ما فعله في الملجأ وكيف دمر طفولتي أنا ومئات مثلي. لم يكفه استغلال منصبه لتحقيق الثراء. لم يكفه الكذب والخداع. وها هو يتربص بي كي يردّ لي ما يعتبره دينا .

مادام هو نفسه الرجل الذي عرفته، فهو بالتأكيد لم يهضم مسألة خطف ابنته بتلك السهولة. في الأول كان سعيدا لأنه كان يستثمر الموضوع أفضل استثمار في الترويج لنفسه في الانتخابات وكله أمل أن يكون فعلا حزب منافس وراء العملية. والآن، بعد أن علم بالحقيقة عن طريق منير، يريد أن يجدني كي يلقنني درسا ما. ذلك النوع من الدروس القاسية التي تخرج منه بخلاصة " بعّد من هداك."

لا، لن أبتعد. وسأعود إليك وسآخذ منك حقي مهما كلفني ذلك يا رشيد.. أو يا عبد القادر.. سم نفسك ما شئت.

شروق تبدي فرحها لأنني نجوت وأسفها الشديد لأن آلفي ضبطني. تسألني :

-أنت متأكد أنه لم يتعرف عليك؟

- ما كان ليطلق سراحي لو كان الأمر كذلك.. بدا ذلك واضحا من تصرفاته وكلامه.

- لكن، كيف استعد لك بتلك السرعة وهاجمك؟
- الوغد مستعدّ لكل شيء، لقد أخبرني أنه قبل أن يدخل ينظر في هاتفه الذي يظهر له كل أنحاء المنزل ومحيطه من خلال كاميرات المراقبة، وهو ما فعله فعلا. طبعا، لم يستطع التراجع خشية من أن أطارده فيفقد عنصر المفاجأة، لهذا استعمل تلك الطريقة وانتظرني وراء باب منزله.

-هو أيضا لم يبلغ الشرطة..

-نعم، شعرت أنه متردّد بشدة في فعل ذلك.. بالتأكيد أموره ومعاملاته ليست سليمة.. هناك تحف مسروقة أو مزورة لديه أو أشياء من هذا القبيل..

علينا الآن أن نتصرف بسرعة. فقدنا عامل المفاجأة مع آلفي ومع عبد القادر رشيد، وخسرنا أموالا كثيرة، وأضعنا وقتا أكثر. أتساءل أحيانا: هل يحدث هذا لأنني أتصرف كـ"عماد الطنجاوي" وليس كـ"عماد"، ابن الشارع الذي تعوّد على إنهاء كل مشاكله بسرعة وحسم؟

أرسلُ رسالة إلى خالد وأطمئنه مخبرا إياه بالأحداث المتسارعة. تسألني شروق من جديد:

-والكتاب.. ألم تستطع معرفة مكانه؟

-بل عرفت.. وقد كان بجوار ذلك الكتاب عن الحرب العالمية الثانية، والذي كان سبب نجاتي.. كنت مقيّدا نعم، لكنني لم أضيّع وقتي.

- ممتاز جدا. نعود لنقطة الصفر إذن ولسؤالنا الأول: كيف نستطيع استعادة الكتاب؟

- لقد تركت ورائي طعما لا بأس به أرجو أن يؤتي أكله.
- تقصد حديثك له عن إعلان فيلم "رحلة إلى طنجة"؟

-تماما..

-تظن أنه قد..........

قبل أن تكمل شروق كلامها رنّ هاتفي. أنظر إلى شاشته مستغربا ثم أجيب مترددا:

-آلو؟

أسمع صوتا بعيدا، ثم جملة بعربية ركيكة:

-نسيتني بسرعة صديقي العربي.... أنا آلـــفـــــــي!

-23-

كان عليّ أن أماطل آلفي على قدر الاستطاعة. الرجل يلح على رؤية الإعلان. من الواضح أن الإغراء كان قويّا، كما أنه يريد التأكّد من حقيقة ما ادّعيت. طلبت منه أن يمهلني فترة قصيرة لأنني مشغول بقدوم زوجتي إلى لندن. لم أجد عذرا غير ذلك حتى نستطيع ترتيب أفكارنا أنا وشروق.

أذرع الغرفة جيئة وذهابا، وشروق تشاهد التلفاز بشرود. تسألني بشكل مفاجئ:

- **لكن، أنت، من أين جاءتك فكرة هذا الإعلان؟**
- **الحقيقة أن الأمر كان شبيها بومضة لمعت في ذهني فجأة، فعندما كنت أعيش بالشارع كنت أمرّ دائما قرب أحد البازارات الشهيرة بطنجة، وكنت أجد ذلك الإعلان هناك معروضا في الواجهة. وكم فكرت مع نفسي أنه من المستحيل أن يشتري الناس أشياء كهذه. وهاهو الزمن والتجربة يثبتان لي العكس.**
- **تقصد أن الإعلان موجود فعلا؟ !**
- **على قدر علمي، كان لازال موجودا منذ رأيته آخر مرة من شهور...**

- ياه يا عماد.. الحلّ بين أيدينا ونحن نبحث بعيدا جدا.. لماذا لا نستثمر هذا الحدث فعلا ونحاول بيع الإعلان لآلفي..
- وكيف نستطيع فعل ذلك في نظرك؟
- ألم تقل أنك تتواصل مع خالد؟ أخبره بهذا المستجد واطلب منه أن يأتينا من البازار المذكور بالخبر اليقين.. ولا تنس سؤاله عن السعر المطلوب..
- والله فكرة مقبولة جدا.. لكن مصيبتنا هي الوقت، فهو لا يرحم..
- لا عليك الآن.. تصرف بسرعة ولندع الباقي لله..
- أحيانا تخيفينني بأفكارك
- دعكتني الحياة ودعكتها..

الحقيقة أن الفكرة التي اقترحتها شروق كانت منطقية جدا وعبقرية. أولا، سنبعد الشك عن ذهن آلفي نهائيا. ثانيا، سننسج معه علاقة لا بأس بها. ثالثا، سنربح فعلا من عملية البيع هذه إن استطعنا إلى ذلك سبيلا.

يردّ علي خالد مؤكدا أن الإعلان لا زال هناك وأن صاحبه يطلب مبلغ 2000 درهم. أتشاور أنا وشروق ونقرر الشراء. نرسل لخالد المبلغ فيقتني الإعلان ثم يرسله لنا بالبريد السريع.

من حين لآخر أتصل بآلفي لأؤكد له أنني عند وعدي وأنني أنتظر فقط شفاء زوجتي من وعكة صحية ألمت بها عند قدومها من السفر. أعرف أن هذا يغذي شكـّـــه، لكن لا حيلة لي.

في غضون يومين ونصف تقريبا كنا قد أنجزنا المهمة وتوصلنا بالإعلان. نتأمله أنا وشروق ونشعر بحنين جارف إلى تلك الحقبة من زمن طنجة. شروق لديها ارتباط سابق بتلك الحقبة. أنا اكتشفت، ولازلت، ما كانت تزخر به طنجة آنذاك من خلال اطلاعي على تاريخها على الشبكة العنكبوتية. لأول مرّة أدرك أنني كنت أعيش فوق أرض أسطورية وليس مجرد مدينة.

أتصل بآلفي وأطلب منه اللقاء في أحد المقاهي القريبة. نجلس بمواجهته ونسلمه الإعلان. يتفحصه باهتمام شديد ويمرّر أصابعه الخبيرة وعدسته المكبّرة على أكثر من جزء فيه. بعينيه الماكرتين يتفحص شروق أيضا وكأنه يحاول أن يتأكد من حقيقة وسبب وجودها.

- إذن.. لنكن عمليين..كم تطلبان ثمنا لهذا الإعلان؟
- فلنقل 10 آلاف باوند..
- يووووه.. كثير.. كثير جدا..

كنا أنا وشروق قد اجتهدنا كثيرا في محاولة لتحديد ثمن مثل هذه الإعلانات. عثرنا على مواقع تعطي أسعارا تقريبية لكل التحف بكل أنواعها. عندما أدخلنا اسم الإعلان في أحد المواقع اقترح علينا مبلغا يقارب 15 ألف باوند. قرّرنا أن نخفض السعر قليلا كي نكسب آلفي ولا نخسره.

آلفي يمارس دوره كتاجر ماهر لا يشق له غبار. يمط شفتيه ويعيد لنا الإعلان (يستفز ذاكرتي فأستحضر لحظة إعادته للكتاب في طنجة معلنا عدم رغبته في الشراء). أشعر بغضب عارم يجتاحني وكأنه سرق مني ذلك الكتاب للتوّ. أفكر في اختصار كل شيء وتلقين آلفي درسا لا ينساه هنا والآن وليكن ما يكون. يد شروق تربت على يدي وكأنها أحسّت بما انتابني من مشاعر. أشعر بها وكأنها تخاطبني "اهدأ.. ليس الآن.. ليس بعد أن اقتربنا".

أطأطئ رأسي محاولا استعادة هدوئي ومحاولا عدم النظر في ملامح آلفي التي بدأت تستفزني.

- كم تقترح؟
- هممم.. حسنا.. سأمنحكما 3 آلاف باوند.. والحقيقة أنني سأضيع في هذه الصفقة..
- كلام جميل.. نحن نقترح 7 آلاف باوند، وإن لم يناسبك سنغادر الآن دون كلمة إضافية.. ما قولك؟

تقول له شروق هذا وتعيد الأنبوب الذي يضم الإعلان إلى حجرها معلنة أنه آخر قرار لدينا.

شروق ماهرة في التفاوض. أدركتْ أنه من النوع الخبيث الذي يبخس قيمة الأشياء كي يحظى بأفضل صفقة. هي لم تقبل بعرضه، لكنها أيضا لم تصرّ على سعرنا الأول. أمسكت العصا من المنتصف وتركت الخيار لآلفي.

- **لا تتسرعا.. لولا بعض الالتزامات المالية لكنت قد اقتنيته منكم للتوّ .. المهمّ، لنضع حدّا لكل هذا بمبلغ 6 آلاف باوند.. اتفقنا؟؟.. هيا.. ألف باوند لن تصنع فارقا..**

تلتقي عيناي بعيني شروق. دون كلام نتفق على أن المبلغ معقول. تومئ لي وأومأ لها دلالة على الموافقة. أقول لآلفي:

- **حسنا، لك ذلك.. الإعلان هاهو.. فأين المال؟**
- **هيه.. لا تكونا ساذجين.. تريدان مني أن أحمل المال معي إلى هنا؟**
- **لا.. بل سننتظرك لتحضره الآن.. أو لا داعي إلى الأبد..**

كنا قد اتفقنا على وضعه أمام الأمر الواقع. لم نكن مستعدين لأن يلدغنا من جديد في نفس الجحر. هو مخادع وماكر، وقد يسرق هذا الإعلان مثلما سرق الكتاب.. من يدري؟ !

ينظر إلينا بحذر، ثم يخرج من حقيبته أوراقا نقدية ملفوفة بعناية، بل ويبدو أنه تم عدّها من قبل. ينقصُ منها بضع رزم ثم يسلمها لنا قائلا:

- **هاهو المبلغ، فأتحفاني بالإعلان.. هيّا..**

الوغد كان مستعدا لكل شيء، وكان قد قرر من قبل المبلغ الذي سيدفع تقريبا. هو فقط تعود على الغش والمماطلة.

نشكره ونسلمه عُهدته مع وعد بلقاء آخر وتحفة أثرية أخرى. تتأبط شروق ذراعي ونغادر. لكننا بمجرد ما نخرج من المقهى نسمع صوت جلبة وصخب. نستدير لنفاجأ بمشهد غريب.. رجال الشرطة البريطانية يحيطون بآلفي ويقتادونه إلى سيارتهم.. أجرّ شروق بسرعة ونختبئ خلف أحد المنازل ونواصل المراقبة.

تغادر السيارة بسرعة مطلقة صفيرها المعتاد.. ننظر أنا وشروق إلى بعضنا البعض عاجزين عن الفهم.. ما الذي حدث للتوّ يا ترى؟

-24-

بعد حوالي نصف ساعة كان الخبر قد انتشر على مواقع لندن الإخبارية الإلكترونية. آلفي واحد من أكبر النصابين وقد قبض عليه مؤخرا لأنه باع لوحة مزورة لشخص ما. ننظر أنا وشروق إلى بعضنا البعض غير مصدّقين. لقد نجونا من أسئلة كثيرة لأننا نفذنا بجلدنا قبل القبض على آلفي بدقائق.

من الواضح أنهم كانوا يتربصون به أو أن إخبارية أعلمتهم بمكان وجوده، ونحن كنا معه لحظتها بالصدفة. في كلّ الأحوال كان الحظ إلى جانبنا فنجونا، وعلينا استثمار هذا إلى أقصى حدّ.

أطل من نافذة الغرفة فلا أجد أمامي سوى الضباب. هو واحد من مساءات لندن التي إذا أخرجت يدك فيها لم تكد تراها. الضباب هو سلطان المكان.

قلت لشروق أن أفضل وقت لاستعادة الكتاب هو الآن، أو يضيع منا إلى الأبد، لأن الشرطة بالتأكيد ستأتي وستقلب بيت آلفي رأسا على عقب، وغالبا ستحجز على كل شيء لإجراء بحوثها.. أم تراها فعلا قد طوقت المكان؟

لا حلّ أمامي سوى اختبار ذلك بنفسي. تتمنى لي شروق التوفيق وفي ملامحها كثيرُ تردّد. أغطي وجهي بقناع بدائي صنعته للتوّ من أحد جواربي وأنا بالكاد أرى ما أمامي. هذا الضباب سيكون نعمة أو نقمة عليّ.

نصحتني شروق أن أقصد ظهر المنزل لأن نمط المنازل الغربية في الغالب يتميز بوجود باب مطبخ في الخلف .

أقفز على السور القصير فلا أسمع شيئا ولا أرى شيئا. يبدو أن التحقيق هو أول خطوة قبل أن تنتقل الشرطة إلى المنزل، خاصة – كما قالت شروق – أن مسألة تطويق أو تفتيش منازل المتهمين تأخذ وقتا طويلا لديهم كي يحصلوا على إذن بذلك.

فعلا، هاهو باب المطبخ الزجاجي أمامي. أأكسره أم أحاول فتحه؟ الآن جاء الدور على عماد ابن الشارع ليمارس واحدة من مهاراته التي كاد ينساها. أدسّ دبوسا في مكان المفتاح وأعالج الباب بهدوء فأسمع صوت التكّة المريحة. لقد انفتح الباب.

أدخل بكل هدوء وحرص وأنا أتلمس المكان محاولا أن أخترق حُجُب الظلام بعيني المجردتين لكن هيهات. أستعين بمصباح هاتفي الصغير، فأجدني أخيرا أمام غرفة الجلوس حيث احتجزني ألفي. على ضوء الهاتف الشاحب أرى، أخيرا، كتابنا هناك.

ألتقط أنفاسي وأنا أنظر إليه وكأنه حبيب فارقني منذ سنوات. بكل حب وعناية أحمله وأضعه تحت سترتي ثم أخرج محاولا ألا أرتكب أي هفوة. أعرف أن الأخطاء لا تقع إلا في اللحظات الأخيرة، حين تعتقد أنك قد اجتزت مرحلة الخطر أو كدت. أقفل الباب من جديد بالدبوس كي لا يبدو هناك أي آثار اقتحام. إن كان آلفي يستعمل الكاميرات ذات الأشعة تحت الحمراء فستكون قد التقطت كل ما حدث بالطبع. فكرنا في هذا أنا وشروق وقررنا أن نعتمد على أمرين: أولا، أن هويتي لن تكون معروفة لأنني أضع قناعا، وبالتالي عملية البحث لن تكون بتلك السهولة والسرعة. ثانيا، آلفي الآن محتجز، وغالبا هاتفه ضمن المحجوزات ولن يسلم له بتلك السهولة من طرف الشرطة، وبالتالي لن يستطيع مراقبة بيته عن بعد كما كان يفعل.

آخر الاحتياطات التي اتخذناها أنا وشروق هي أن تسافر هي لوحدها أولا، ثم أتبعها أنا. فلو قام آلفي بالإبلاغ عني، فسيكون البحث جاريا عن رجل ولن يشكوا في فتاة تحمل معها مجموعة كتب قديمة، خاصة أننا اشترينا مجموعة كتب ووضعنا الكتاب بينها وكأنها مجموعة مختارة!

لم يكن قرارا سهلا وجابهته شروق بكثير من الاعتراض والدموع، لكن ليس بيدنا حيلة. إما أن تنجو هي والكتاب، أو

يقبض علينا جميعا ونفقد كل شيء في لحظة واحدة. قطعنا التذكرتين. اشترينا الكتب. وجلسنا ننتظر..

منزل آلفي، كما يبدو من نافذة غرفتي، لازال على حاله يلفّه الصمت..
الكتاب في حقيبة سفر شروق، وهي تلهج بالدعاء..

تغادر شروق نحو المطار لوحدها لمزيد من الاحتياط وأبقى أنا مترقبا، قلقا..

تصلني منها رنة هاتف معناها أن قد دخلت الطائرة وأنها قد بدأت تتحرك فعلا كي تُقلع..

هاهو هاجس أول قد تخلصنا منه.. شروق والكتاب بأمان.. والآن دوري.. كيف ستمرّ الساعات القادمة عليّ يا ترى؟!

لم يحدث شيء. أحيانا تكون هواجسنا ومخاوفنا أقوى من الواقع نفسه. بين نبضات القلب ورعشات الجسد قضيت رحلتي من لندن إلى الدار البيضاء ثم طنجة. لم أشعر بالاطمئنان إلا وأنا أدخل على شروق ووالدتها وأرتمي في حضنهما معا ثم أقبل رأس وكف والدة شروق التي أناديها "خالتي رحيمو".

أخيرا، انتهت رحلة العذاب، أو هكذا بدا لي. رغم تعب السفر كان بي فضول كبير لمعرفة محتوى الكتاب. شروق أيضا تذوب شوقا لذلك. كنا قد تواعدنا على ألا تلمسه حتى أعود لنكتشف أسراره معا. قلت لشروق أنني لم أعد مهتما ببيعه لأية جهة. سأكون سعيدا جدا وهو يقبع في متحف القصبة. ما دامت طنجة بخير، فسأكون بخير.

تغيرت أشياء كثيرة منذ عثرت على الكتاب إلى الآن. فرق كبير بين "عماد" المتشرد الذي يبحث عما يسد به رمقه، وبين "عماد الطنجاوي" الذي لم تعد ضروريات الحياة تشغله، والفضل لشروق طبعا.

أفكر كيف يغير واقع الإنسان رؤيته ونظرته للأمور. لا تحدّث إنسانا جائعا عن التاريخ وعن القيم وعن المشاعر. كل ما

ستقوله سيعتبره جنونا. هذا ما حدث معي. كنت أرى في الكتاب منجاة لي من دنيا الفقر والحاجة (وليس من دنيا التشرد بالضرورة)، بينما كانت شروق تحدثني عن طنجة وتاريخها.

الآن، في وضعي الحالي، أستطيع أن أفهم كلام شروق وأن أستمع له.

سألتُ شروق إن كانت قد لاحظت أي شيء أو حركة غير عادية في الجوار، فأكدت لي أن الأمور هادئة. لم أستبعد أن يحاول عبد القادر رشيد من جديد خطف شروق أو إيذائها لذا أوصيتها بأخذ الحذر.

أمد قدميّ على حاجز الشرفة وأغمض عيني طالبا من شروق أن تقرأ وتترجم. اتفقنا على أن نقرأ في كل يوم بضع صفحات حتى ننهي الكتاب الذي يقع في حوالي 200 صفحة.

كانت اليوميات ممتعة جدا. يحكي الراوي بالتفصيل عن أيام تواجده بطنجة تزامنا مع الحرب العالمية الأولى. يحكي عن طنجة حينا وعن أخبار الحرب حينا آخر.

فاجأتني معلومة أن واحدة من أسباب الحرب العالمية الأولى وقعت في طنجة، وكانت تعرف ب"أزمة طنجة"، وكان ذلك بين سنتيْ 1905 و1906، حيث ساءت العلاقة وقتها بين الألمان من جهة وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى.

أشياء غريبة ومثيرة أسمعها لأول مرة، وأفهم من جديد أنني أعيش فوق أرض ليست ككل الأرض، مكان ليس ككل الأمكنة. وأنا الأحمق الذي كنت أريد أن أبيع هذه الثروة مقابل حفنة ملايين؟

الآن أفهم لماذا كان مزاد آلفي على الكتاب مستعرا لا يتوقف. في كل مرة يظهر من هو مستعد لدفع ملايين اليوروات أو الباوندات، وفي كل مرة يكشف لهم آلفي عن صفحة تدير رؤوسهم من غرابة ما تحفل به.

وكأنني أستيقظ من حلم. أفتح عيني لأجد أن شروق قد أخذ منها الإنهاك والتعب مبلغه فسقط الكتاب على حجرها بينما أغلقت عينيها وغطت في نوم عميق. شعرت بشفقة كبيرة عليها. ما مرّت به يصعب أن تمرّ به أي فتاة أخرى. كل هذا تنفيذا لوصية والدها وحبا في طنجة.. أي جوهرة نادرة أنت يا شروق؟

أحملها إلى الفراش وأعود لأتأكد من إغلاق النوافذ بكل حرص. بعناية فائقة أضع الكتاب في ركن ركين.. لازلت غير واثق مما قد يحدث في قادم الأيام.

يتواصل معي خالد ويخبرني برغبته في كتابة موضوع، في صحيفته الإلكترونية، عن حكاية استعادتنا الكتاب ورغبتنا في منحه هدية لمتحف القصبة.

أفكر مليا في الموضوع. لو تعامل معه خالد بذكاء فسيكون نشره في صالحنا. لكن لو تم ذكر كل الأحداث والتفاصيل، فقد تصل المعلومة بشكل ما لآلفي أو حتى للشرطة الدولية ونعود لنقطة الصفر. فما فعلته في لندن لم يكن بسيطا.. بل هناك محاولة اقتحام أولى، ثم اقتحام فعلي وسرقة كتاب نادر من منزل آلفي. أنا أعرف أنني على حقّ لكنهم لا يعرفون، وسيطبقون القانون بحذافيره.. وآه ثم آه من تطبيق القانون الأعمى دون النظر إلى عدالة القضية من عدمها.

في الصباح، على مائدة الإفطار، جلسنا أن وشروق نفكر في خطواتنا القادمة. كان أهمها أن عودتنا للعمل مقهى الإنترنت ستكون محفوفة بالمخاطر، لذا أفضل حلّ هو بيعه، والابتعاد عن الأماكن التي تعوّدنا التواجد فيها ولو مؤقتا. في الغالب، "الدندول" ومنير لن يعودا إلى طنجة بعد فقدانهما لشروق لأن العقاب بالتأكيد سيكون قاسيا من طرف من كلفهما بالمهمة. هذا يعني أن طرف الخيط قد ضاع من يد عبد القادر رشيد. لكن لا أحد يدري.. سدّ الذرائع هو الحلّ.

مسألة نشر خبر استعادة الكتاب قد تعيدنا إلى الواجهة بقوّة ونصبح مكشوفيْن أكثر لكل لطنجاوي، بل وكل مغربي، وليس لعبد القادر رشيد فقط. لكن، سنعتمد على مسألة أن المتشردين لا يقرأون الجرائد وبالتالي لن يصلهم الخبر بالتأكيد، كما أن عبد القادر رشيد لن يربط بيننا وبين من

يبحث عنهما. هو لا يعرف ملامحي ولا ملامح شروق لحسن حظنا.

بعد أخذ وردّ، قررنا أنا وشروق أن نفعلها. طلبنا من خالد أن يكتب الخبر ويطلعنا عليه ولا ينشره قبل أن نمنحه الموافقة النهائية. الحقيقة أن خالد كان موفقا جدا في كتابة الموضوع، وأوصل الفكرة العامة دون دخول في التفاصيل، بل إنه قام بتحريف بعضها إمعانا في التضليل، كحديثه عن "دولة أجنبية" دون ذكر بريطانيا بالضبط.

ماذا عن نشر صورنا؟ !

خالد يقترح أن أظهر أنا على الأقل. تجربتي في نظره تستحق أن يعلم بها الجميع وأن أصبح وجها معروفا. يقول إن ذلك في صالحي وسيمنع أي شخص من الاقتراب مني بسوء. بل على العكس، سأصبح وجها محبوبا ومعروفا، على الأقل لمثقفي وعشاق طنجة بكل أنواعهم.

وافقنا أنا وشروق. إن كان لعبد القادر رشيد سلطة، فينبغي أن تكون نحن لنا سلطة من نوع آخر إن كنا سنجابهه ، وهو الأمر الذي أكدت لي شروق أنها لازالت على وعدها بخصوصه، وأن الدّين ينبغي أن يردّ لذاك الحقير، بعز عزيز أو بذل ذليل.

آخر خطوة قمنا بها أنا وشروق هي نسخ الكتب من أجل ترجمته فيما بعد، قبل أن نقوم بإهدائه للمتحف.

خالد نشر الخبر. التجاوب كان كبيرا والبحث عن شخصي كان محموما، لكنني بقيت مختفيا حتى حين..

والآن، جاء دورك يا عبد القادر رشيد... أكنت تعتقد حقا أنك نجوْت؟

-الفصل الأخير-

أدخل سيارتي وأغلق الباب وأنا أشعر بإنهاك شديد..

يوم كامل متواصل من العمل لن يُذهب تعبه سوى حمّام ساخن ونومة عميقة. أفكر بهذا وأنا أهمّ بإدارة محرّك السيارة. أسمع طرقا على الباب فألتفت لأجد متسوّلا يمدّ يده طالبا صدقة..

أفتح زجاج سيارتي، وأضع في كفّه بضع قطع نقدية قبل أن أمرّ بنظرة عابرة على وجهه.. أنظر أمامي وأنا أعتصر ذاكرتي: ترى أين رأيت هذا الوجه من قبل؟

نعم.. إنه هو.. عبد القادر رشيد.. الرّجل الذي تجاوزت عن الانتقام منه منذ سنوات..

لقد مني بخسارة كبيرة في الانتخابات، قبل أن يبدأ تحقيق معمق في عدد من قضايا فساد كان له يد فيها، بما في ذلك ملف دار الأيتام الذي تمّ البحث فيه من جديد بشكل معمق..

خسر عبد القادر كل شيء.. تابعنا أخباره أنا وشروق في الجرائد.. وفي كل مرّة كانت تربت شروق على يدي وتقول "دع الله ينتقم منه، وراقب أنت فقط".. وذلك ما كان..

كانت العدالة الإلهية فوق ما أتصوّر وبدا أن عبد القادر يؤدي ثمن كل ما فعله شبرا بشبر..

قررت أن أنساه تماما وأواصل حياتي دون أحقاد.. بدا لي ذلك أريَح، رغم ما كان يجتاحني من كوابيس من حين لآخر..

نسيت أن أخبركم أنني أصبحت عمدة لمدينة طنجة.. صحيح أن الأمر يبدو أقرب إلى الجنون لكنه حدث..

منذ سنوات.. قام صديقنا خالد بحملة إعلامية كبيرة للترويج لما فعلته بعد مرور شهور على الحدث، وبعد انهيار امبراطورية عبد القادر المالية والسياسية..

فجأة اكتشف سكان طنجة أن هناك شخصا يحبّ المدينة حتى النخاع، وقرّروا أنه يستحق صوتهم..

لا أريد أن أرهقكم بالتفاصيل، لكنني وجدت نفسي فجأة وسط معمعة وحلم كبير استفقت منه وأنا عمدة بعد أن تعلمت الكثير والكثير..

لا أخفيكم أنني في كل يوم أفكر في تقديم استقالتي لما أراه من أشياء يشيب لها الولدان.. لكنني لو فعلت لخنت طنجة، ولخنت من وضعوا ثقتهم في شخصي..

أنادي على عبد القادر وأطلب منه الركوب معي في السيارة.. يتردد للحظة وهو ينظر إلي غير فاهم، فأشجعه بإشارة من رأسي..

يركب معي فأنطلق..

أدخل مركزا لإيواء المتشردين كنت قد أشرفت على عملية بنائه، وأطلب منهم الاعتناء به، وأضع تحت أيديهم ميزانية خاصّة في حالة احتياجه لها..

راحة كبيرة أشعر بها..

الشارع لا يعلم الحقد.. قد يعذبك لكنه يؤدبك إن كان في قلب مثقال ذرة من رحمة..

أتركه هناك وأعرّج على ملجأ الأيتام حيث أتناول يوميا وجبة الغذاء هناك مع الأيتام أنا وشروق.. وحيث يتم تحويل راتبي كله لميزانية الملجأ..

أمر أخير لا بد أن أخبركم به..

من حين لآخر، أترك فراشي الدافئ وأذهب لأختار أي مكان في الشارع وأبيت فيه، تأديبا لنفسي وتذكرا لشارع حملني دون تأفف..

لهذا، إن رأيتم يوما شخصا لا تبدو عليه إمارات التشرد ينام في شوارع طنجة.. فاعلموا أنها أنا.. صديقكم عماد..

المتشـــــــــــــرّد..

(النهايـــــــــــة)